TAS_811_08/01

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
كلية الأدب و اللغات
قسم الأدب العربي

2013
FacLITOL093

مذكرة تخرج ماستر أدب و حضارة
تخصص حضارة عربية إسلامية
موسومة بـــ:

# الشعر ووظيفته التوثيقية في حضارة الاندلس

إعداد :
جنان فاطمة الزهرة

تحت إشراف الأستاذة:
د.شاهيناز بسمة بن زرقة

السنة الجامعية 2011-2012

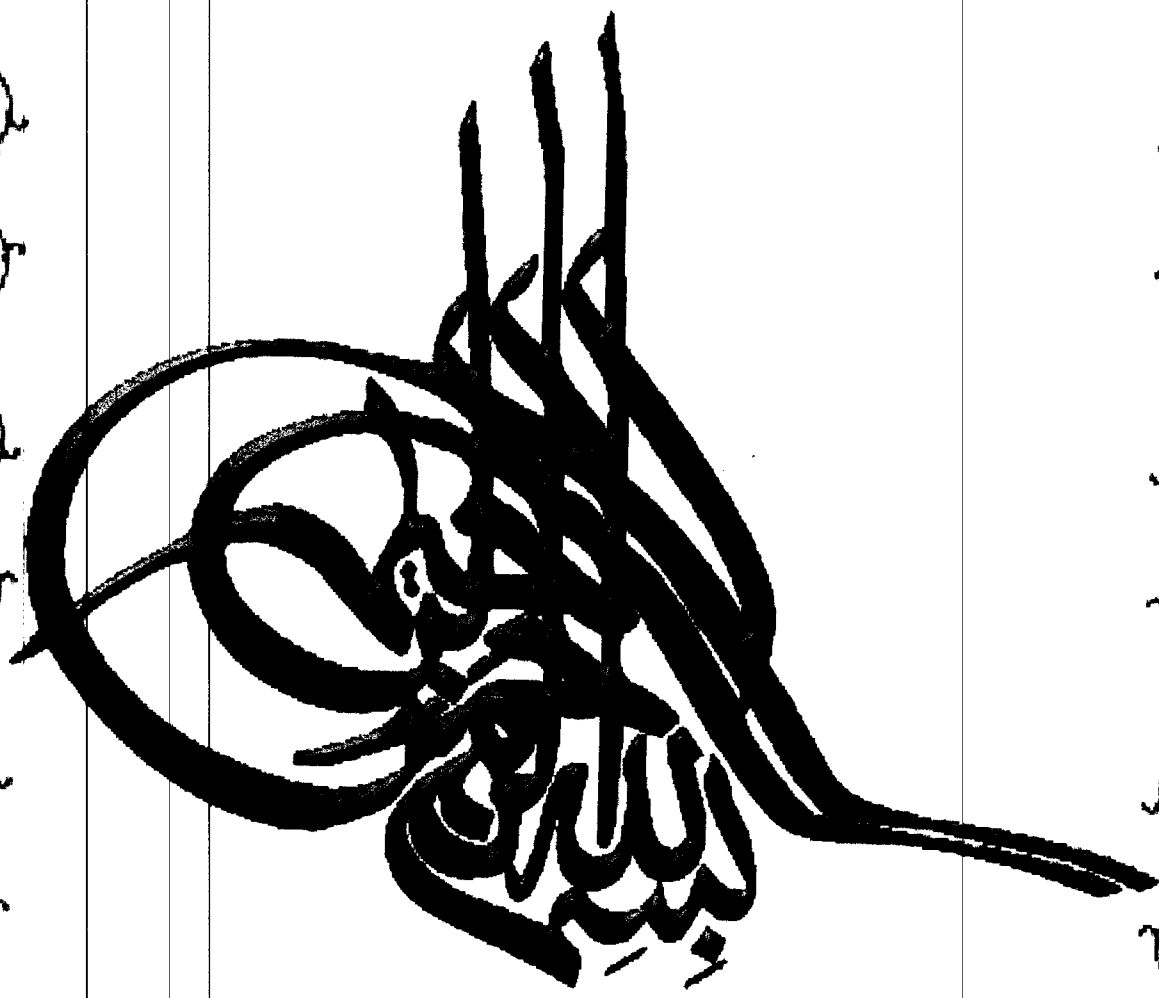

# كلمة شكر

الحمد و الشكر لله تعلى من قبلُ و من بعد على أن هداني لفكرة هذا البحث، و وفّقني لإتمامه.

و الشّكر موصولٌ لـــــــ:

الأستاذة المشرفة شاهيناز بن زرقة، التي كان لها فضلٌ كبير في إرشادي و توجيهي نحو الصواب، و التي بذلت في سبيل ذلك من جهدها و وقتها، شكر الله تعالى لها و جزاها عنّي خير جزاء.

و لكلّ من ساهم من قريب أو بعيد في سبيل إثراء هذا البحث و إتمامه..أقول "شكر الله لكم و جزاكم عنّي خير جزاء".

كما لا أنسى أساتذتنا و معلّمينا الكرام الذين درّسونا مذ كنّا صغارا.

# إهداءات

# مقدمة

الشعر ديوان العرب, لأنه بمثابة السّجل الذي يحفظ أدب العرب و تاريخهم وأنسابهم, و الشاعر باعتباره ابنا لبيئته فهو يُتيحُ لنا رؤية نقيّة حافلة بالصور المجسمة النابضة بالحياة, على اعتبار أنّه يُسجّل الكثير من التفاصيل التي تغفل عنها كتب التاريخ.

و حضارة الأندلس كغيرها من البيئات, أنجبت شعراءها, الذين حملوا على عاتقهم نقل مشاهداتهم إلينا... بعد أن أثرت فيهم تلك الحضارة بما حفلت به من مظاهر التفوق و الازدهار. إنّها حضارة دامت قرابة الثمانية قرون, بلغ خلالها المسلمون شأوا عظيما و قطعوا شوطا طويلا في الحضارة, فعرف عصرهم فنّا معماريا رائعا امتزج بالطبيعة السّاحرة للأندلس, كما تفوقوا على شتّى الأصعدة العلمية و الفقهية والحربية وغيرها.

و من هاذين المنطلقين: منطلق الشعر باعتباره التعبير الأصدق عن واقع عصره, و الموثق الأوثق –ربّما- لمظاهره, و كذا من منطلق الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس باعتبارها فترة من أزهى فترات تلك الحضارة... جاءت فكرة هذا البحث, لأجل رصد جانب من جوانب علاقة الشعر بالحضارة, والمتجسد في واحدة من أهم وظائف هذا الفنّ -بالنسبة للعرب على الأقل- ألا

وهي وظيفة "التوثيق" لتلك الحضارة, ليُصبح الشعر شاهدا على معالمها وعلى ما جادت به في مختلف المجالات الحضارية وعلى رأسها العمران.

و سيسعى هذا البحث للإجابة عن جملة من التساؤلات تتلخص في الآتي:

ما الملامح الحضارية العامة التي نشأ فيها الشعر الأندلسيّ؟ و ما العوامل التي ساهمت في نشأته و ما المراحل التاريخية التي مرّ بها و ما أهمّ موضوعاته و مميّزاته؟ أمّا الإشكال الرئيس للبحث فدار حول مدى مواكبة الشاعر لتلك الحضارة و مدى قدرته على توثيق مظاهرها؟ و كيف كان هذا التوثيق؟ و ما هي ميزته عن التاريخ؟ ثمّ كيف تجلّت كلٌّ من الطبيعة و العمارة و البحرية في شعره؟ و بالتالي ما الأهميّة التي يكتسيها الشعر بالنسبة لحضارة الأندلس بل للحضارة عموما؟

وللإجابة عن تلك التساؤلات, استعنتُ –بعد عون المولى تعالى- بمجموعة من المصادر و المراجع, ممّا جادت به المكتبات و تمخظ عنه البحث...و منها على سبيل الذكر لا الحصر:

من المصادر: "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" للمقري, إضافة إلى جملة من الدواوين, كديوان ابن هانئ الأندلسي و ابن عبد ربّه و ابن خفاجة وابن درّاج القسطلي.

من المراجع: "تاريخ الأدب الأندلسيّ" لإحسان عبّاس و "الجامع في تاريخ الأدب العربي" لحنّا الفاخوري و "الشعر والبيئة في الأندلس" لميشال عاصي...بالإضافة إلى رسائل جامعية و مصادر و مراجع أخرى, سيأتي ذكرها تباعا في سياق هذا البحث.

و قد التزمت في بحثي الخطّة التالية:

مدخل: تحدثت فيه عن مجموعة من المفاهيم كالشعر و الوظيفة و كذا الوظيفة التوثيقية وعن هذه الوظيفة حصرا بين الجاهليّة و الإسلام مشيرة إلى مدى حقيقة أنّ الشعر ديوان العرب.

الفصل الأول: عن الشعر في حضارة الأندلس و ضمّ مبحثين:

المبحث الأول: حول البيئة التي نشأ فيها الشعر الأندلسيّ من حيث مختلف ملامحها الحضارية.

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن الشعر الأندلسيّ: عوامل نشأته و مراحله التاريخية و أهم مميزاته.

الفصل الثاني: عن الشعر الأندلسيّ و توثيقه للمظاهر الحضارية, و ضمّ هو الآخر مبحثين:

المبحث الأول: خُصّص لما وثقه الشعر من المظاهر الطبيعية في حضارة الأندلس.

المبحث الثاني: شمل جانبين هما: العمران و البحرية, فتحدّث عن توثيق الشعر لكلّ من مظاهر التفوق العمرانيّ و التفوق البحريّ في حضارة الأندلس.

خاتمة: سعيتُ من خلالها إلى تلخيص جملة النتائج المُتوصَّل إليها.

أمّا المنهج المتبعُ في هذا البحث, فكان مزيجا من مناهجَ مختلفة هي: التاريخي والوصفيّ والتحليلي أحيانا, بحسب ما اقتضته طبيعة المباحث و الفصول.

و لعلّ من أبرز المشاكل التي واجهتني خلال هاته الرسالة: تراكم المّادة البحثيّة وتكرّرها في العديد من الكتب, و ربّما حال هذا دون الإتيان بالجديد و المفيد. إضافة إلى مُشكل ضيق الوقت مع ما نُعانيه من"التقصير"!

و إنّي لأرجو في الأخير أن يكون هذا العمل خالصا لوجه الله تعالى و أن أكون قد وُفّقتُ فيما قصدت و أدّيتُ خدمة فيما بذلت, فإن أصبت فذلك غاية ما أتمناه وإن أخطأتُ فحسبي أنّني بذلتُ الجهد, و الله من وراء القصد فيه الهداية وعليه التوفيق.

تمّ بعون المولى بتلمسان في: 2012/06/14

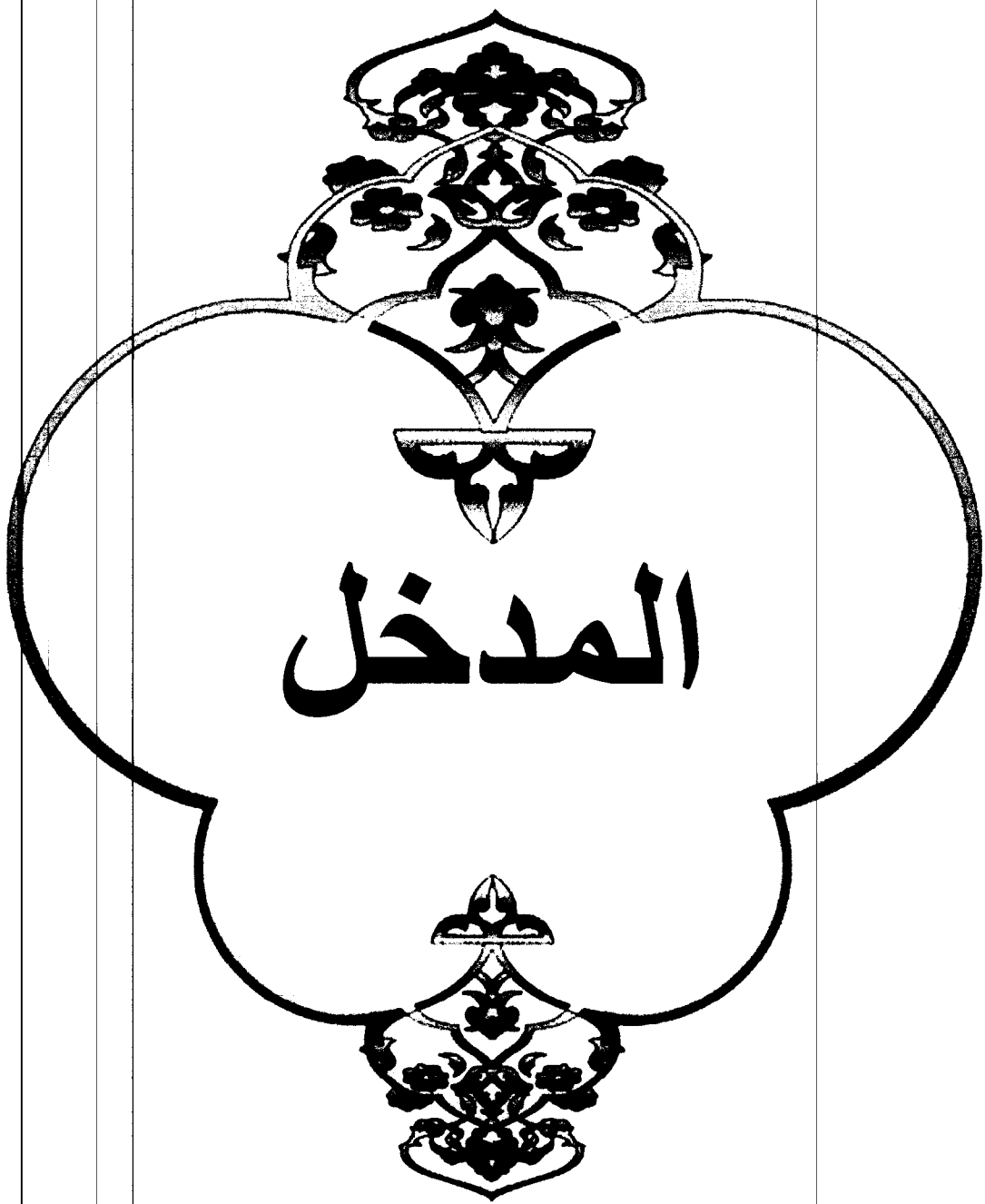

# المدخل

## عن الشعر :

الشعر فيما يذهب اليه ابن منظور في لسان العرب :" هو منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن و القافية، و ربما سموا البيت الواحد شعرا، وقال الأزهري : الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، و الجمع أشعار و قائله شاعر لأنه يشعر مالا يشعر به غيره أي يعلم ". [1]

و يقول ابن رشيق في كتابه العمدة، باب حدّ الشعر و بنيته: إن الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء و هي: اللفظ و الوزن و المعنى و القافية، فهذا هو حد الشعر لأن من الكلام موزونا مقفى وليس شعرا، كأشياء اتزنت من القرآن، ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم، و المتزن ما عرض على الوزن فقبله.[2]

والشعر في رأي شوقي ضيف هو صناعة تجتمع لها في كل لغة طائفة من المصطلحات و التقاليد و مما يدل على أن العرب كانوا يعتقدون بأن من الشعر ضرب من الصناعات، أنهم جعلوه كالحلل و المعاطف و الديباج و أشباه ذلك.[3]

## عن الوظيفة :

لا يختلف الباحثون و الشعراء حين يتعلق الأمر بالشعر في ذاته أي في الوظيفة الجمالية، بل يؤكدون على ضرورة الصناعة الشعرية، أي تحقيق ما أمكن

---

[1] ابن منظور:"لسان العرب" مجلد 4، دار صادر، بيروت، د. ط ، د .ت ص 410

[2] ابن رشيق: " العمدة في صناعة الشعر و آدابه ونقده" ج 1 تقدير و شرح صلاح الدين الهواري، دار و مكتبة الهلال للطباعة و النشر، بيروت لبنان، 2002، د. ط، ص 209

[3] ينظر: شوقي ضيف: " الفن و مذاهبه في الشعر العربي" دار المعارف، القاهرة، ط 10، د. ت، ص 13

من اكتمال جمالي، و إنّما يختلفون فيما بعد الشعر أي في الوظيفة الثانية، و ما بعد الشعر - هذا- تتحكم فيه الثقافة و المجتمع و الإيديولوجيا[1]

و ليس من الشعراء من لا يؤمن بوظيفة الشعر حتى أشدهم ارتباطا بالجمالية، لكنهم يؤكدون على أن الشعر لا يمكن أن يؤدي أية وظيفة مالم يكتمل فنيا و جماليا .... فالشعر يؤدي وظيفتين الأولى لذاته و الثانية للحياة، دون أي تناقض أو تضاد بينهما [2]

لا اختلاف إذا على ضرورة "الوظيفة الجمالية" أو "المبدأ الجمالي" قبل القول بأية وظيفة أخرى ، وفيما عدا ذلك ضلت اشكالية الوظيفة قائمة منذ أيام العرب الأولى، حيث تختلف طبقة الرواة أنفسهم في تصورهم للمهمة التي يروى الشعر من أجلها فكل فريق منهم يريده أن يخدم غاية محددة دون الالتفات للغايات الأخرى

- فالنحويون من هؤلاء الرواة لا يرون إلا كل شعر فيه إعراب

- والذين يجمعون الأشعار لا يهتمون إلا بكل شعر فيه غريب أو معنى صعب....

- و رواة الأخبار لا يقبلون إلا على كل على كل شعر فيه الشاهد و المثل

[1] عبد الله العشي :" أسئلة الشريعة بحث في آلية الابداع " منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 2009، ص 275
[2] عبد الله العشي :" أسئلة الشريعة بحث في آلية الابداع " منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط1، 2009، ص274

- وعامّة الرواة لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة و المعاني المنتخبة و على الألفاظ العذبة و المخارج السهلة [1]

وإلى نفس هذا المعنى يذهب الجاحظ حين يقول في باب من عنده علم الشعر : "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأحفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار، و تعلق بالأيام و الأنساب" [2]

وبالرغم من كل تلك الاختلافات، يبقى النص الأدبي في نهاية الأمر منتميا إلى عدة سياقات لا ينفي أحدها الاخر، فهو أولا يوجد داخل سياق أدبي يتكون من كل النصوص الأدبية السابقة و اللاحقة التي كتبت باللغة نفسها، كما أن النص الأدبي يوجد داخل سياق حضاري و تاريخي و اجتماعي أيضا، وهي كلها سياقات متداخلة، تؤثر على العمل الأدبي و تترجم نفسها إلى عناصر أدبية، و يمكننا أن ندرس نصّا أدبيا ما داخل هذه السياقات، او ندرسه داخل إحداها وحسب، حسبما تمليه طبيعة الدراسة و الهدف منها[3]

**عن التوثيق :**

[1] إحسان عبّاس : "تاريخ النقد الأدبي عند العرب"، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2006، ص 45
[2] ابن رشيق: " العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده" ج 2، دار و مكتبة الهلال للطباعة و النشر،، بيروت لبنان، 2002، د. ط، ص 171
[3] ينظر عبد الوهاب المسيري: "دراسات في الشعر" مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1427هـ -2007م، ص20

ورد في المعجم الوسيط، باب الواو، مادة وثق: وثّق فلانا: قال فيه إنه ثقة، و الأمر أحكمه، والعقد و نحوه: سجّله بالطريق الرّسمي، فكان موضع ثقة.

والوثيقة: مؤنث وثيق - و- ما يحكم به الأمر وفي الأمر: إحكامه[1]

وورد في لسان العرب : وثق : الثقة : مصدر قولك وَثِقَ به يَثِقُ بالكسر فيهما، وَثَاقةً و ثِقةً ائتمنه ... و وثِقتُ فلاناإذا قلت إنه ثقة... و الوثيقة الشيء المحكمُ، والجمع وثائق، ويقال: أخذ بالوثيقة في أمره أي بالثقة و توثق في أمره مثله، و وثّقت الشيء توثيقا، فهو موثّقٌ و والوثيقة: الإحكام في الأمر... و يقال : استوثقت من فلانٍ و توثقتُ من الأمر إذا أخذت فيه بالوثاقة، وفي الصحاح: استوثقت منه، أي أخذت منه الوثيقة، وأخذ الأمر بالأوثق أي الأشد الأحكم[2]

**الوظيفة التوثيقية للشعر :**

"إن الفنون الشعرية من مظاهر الحياة، و لها صلة وثيقة بها، من ثَمّ فهي تصطبغ بصبغة الحياة، وتتطور بتطورها " و الشاعر هو قبل كل شيء " ابن بيئته"، وبالتالي ينتمي لحضارة بيئته و تاريخها، وبدون هذه الصّلة - بالواقع- يفقد الشاعر خصوصيته من حيث هو كائن تاريخي عاصر مرحلة معينة، تحدد وعيه بمجرياتها[3]

[1] .....: المعجم الوسيط ج1 و 2، مشرف الطبعة حسن علي عطية و محمد شوقي أثين، د.ط، د.ت، ص 1054
[2] ابن منظور: "لسان العرب"، مجلد 10، ص 371، 372
[3] ينظر: مُحي الدين صبحي، "الشعر طقس حضارة"، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، د. ط، د.ت، ص 3

وفي رأي السيد قطب فإن الشاعر الحقيقي هو الذي يحس بالحياة إحساسا عميقا يترجم عنها للأحياء، فهو يلعب دور الوساطة بينها و بين أبنائها الاخرين - من يعاصرها وممّن يليهم من الأجيال - شريطة أن يكون إحساسه بالحياة أدق و أعمق، و تعبيره أرقى من تعبير الجماهير، مظهرا في هذا تعبير نفسه و تأثرها بما شاهدت و أحسّت[1]

أمَّا الأصل في الشعر بحسب أحمد زكي أبو شادي أن يكون تعبيرا غريزيا للتفاعل بين حوّاس الانسان والطبيعة وأن الانسان لمّا أخذ بأسباب الحضارة أدرك تدريجيا قيمة الشعر كعامل من عوامل القوة... فاستخدمه في مآرب شتى اختلفت باختلاف الاجيال و الأوساط والبيئات [2]، هو غريزة لأنّ الأديب ليس بحاجة إلى من يحفزه حفزًا إلى مناصرة مجتمعه فيما يذهب إليه، ذلك أنه مغمور بهذا المجتمع الذي يحتويه، متأثر بكلِّ ما هو حوله من قوى خلاقة، وانطلاقات جماعية بنّاءة، فإذا جرّد قلمه ليعبر فإنما هو يعبِّرُ عن روح عصره، و يصوِّرُ مجتمعه نفسه في علاقة تأثرية متبادلة[3]

كما أنّ الشعر - و في إطار هاته الوظيفة - هو وسيلتنا للبقاء داخل تاريخ جسدنا و استعادة الاطمئنان باستمراريته... فهو بالنسبة "لإنسان المرحلة" يمثل

[1] "نظرية الشعر، مرحلة مجلة أبولو، القسم 2، مقالات-شهادات" تحرير و تقديم محمد كامل الخطيب، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1992، د.ط، ص217

[2] "نظرية الشعر، مدرسة أبولو، القسم 1، مقدمات" تحرير و تقديم محمد كامل الخطيب، منشورات وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 1992، د.ط، ص40

[3] محمّد تيمور: "اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة"، ملتزم للطبع و النشر، مكتبة الآداب و مطبعتها، مصر، د.ت، د.ط، ص 188

الهوية و الخصوصية، إنه "واجهة العصر"... فهو ذاكرتنا وهو ديوان الإنسانية و تاريخ الهزائم والغنائم و الانتصارات...[1]

كما أن الشعر في سياق الوظيفة التوثيقية - وهذا ما يمكن استنتاجه ممّا سبق – هو نوع من المعرفة المتميزة و الإدراك الخاص الذي يمنحه الشاعر بحسه المرهف و نظرته العميقة لما حوله، وهو وعي جديد يختلف عن أشكال الوعي الأخرى، فأن يكتب الشاعر قصيدة لا يعني أن يمارس نوعا من الكتابة وحسب، و إنّما يعني أن يحيل العالم إلى شعر[2]

**عن الشعر و وظيفة التوثيقية بين الجاهلية و الإسلام :**

"كان الشعر الجاهلي القديم ديوان العرب و تاريخهم، و مظهر مؤلفاتهم ونبوغ فكرهم" [3]فمبدأ الشعر عند العرب أن كلامهم كان منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، و طيِّب أعراقها، و ذكر أيامها الصالحة و أوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد، و سمحائها الأجواد، لمّا احتاجوا إلى حفظ و توثيق كلِّ ذلك، توهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلمّا تمّ لهم وزنه سمّوه شعرا، و

[1] عبد الله العشي: " أسئلة الشعرية" ص 266
[2] عبد الله العشي: " أسئلة الشعرية" ص 116
[3] عبدالمعين محمود عبارة: "روائع من الشعر العربي القديم "، مكتبة الدوحة الحديثة، الدوحة، قطر، د.ط، د.ت، ص 1

قيل:" ما تكلمت به العرب من جيّد المنثور أكثر ممّا تكلمت به من جيّد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"[1]

وقد أكدّ الكثير من النُّقاد لقدماء مقولة ابن عبَّاس عن كون الشعر ديوان العرب، فقال ابن سلام في طبقات فحول الشعراء:" كان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"

وقال ابن قتيبة في "عيون الأخبار": الشعر معدن علم العرب و سفر حكمتهم، وديوان أخبارهم، ومستودع أيامها" وقال العسكري في كتاب الصناعتين :" الشعر ديوان العرب و خزانة حكمتها و مستنبط آدابها، و مستودع علومها" وقال ابن فارس في الصا حبي :" الشعر ديوان العرب به حفظت الأنساب و عرفت المآثر و تعلمت اللغة" وقال ابن الأثير في تعريف الدِّيوان أنه الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش و أهل العطاء [2]

و الشاعر في الجاهلية كان لسان حال قبيلته، ومن يمعن النظر في تاريخ الشعر العربي الطويل و نصوصه الكثيرة منذ العصر الجاهلي سيجد شعراءه يصورون دائما ما ألمّ بشعوبهم من أوقات رخاء، ومن أوقات شدّة مهما اختلفت الأزمان و مهما تفاوتت الأقطار والبلدان، و مهما تعاقبت الأحداث و الخطوب...

[1] ابن رشيق المسيلي القيرواني: " العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده" ج1، حققه و فصله محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، د. ط، ص20

[2] جعفر حسن: "هل الشعر ديوان العرب" مقال الكتروني : cow.egyptiangrcens.wwm

فهو دائما يصوِّر حياة شعوبه و آمالها و آلامها، سواء في عصور الابتهاج أو في عصور الابتئاس و كان هذا التصوّر على أتمه في العصر الجاهلي و الإسلامي [1] كما كان العرب ينشدون في أشعارهم أيامهم و وقائعهم و فعالهم... ومن أشهر أيامهم يوم ذي قار قبيل الإسلام الذي هزمت فيه قبيلة بكر بقيادة هانئ بن قبيصة الشيباني جموع الفرس و جيوشهم و يسمّى هذا اليوم أيضا يوم "حِنو قُراقر"، و هو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ممّا جعل الأعشى يصيح في وجههم بمثل قوله:

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم ✾ منّا غضاريف ترجوا الموت فانصرفوا
مّا أمالوا إلى النّشاب أيديهم ✾ ملـنا ببيض فظـلّ العمام يقتطف
وقيل بكرفما تنفكُ تطعنهم ✾ حتّى تولّوا و كاد اليوم ينتصف[2]

و كذلك كان العرب ينشدون أشعارهم و أراجيزهم حيث يستسقون لإبلهم وأغنامهم من مورد عذب، وكذلك حين كانوا يحفرون بئرا، وفي كتاب "فتوح البلدان" لبلاذري فصل طويل يعرض فيه الأراجيز التي نظمت قبل الإسلام في حفر آبار مكة، من ذلك حفر عبد شمس لبئر سمّها حمًّا و رمًّا، وفي ذلك يقول :

حفرت حمًّا وحفرت رمًّا ✾ حتّى أرى المجد لنا قد تمًّا

و حفر بنو غدي عشيرة عمر بن الخطّاب بئر الحفير، و في ذلك يقول راجزهم:

نحن حفرنا بئرنا الحفيرا ✾ بحرا يجيش ماؤه غزيرا

[1] ينظر: شوقي ضيف: "البطولة في الشعر العربي" دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت، ص 26
[2] نفس المرجع : ص 25

فمن المحقق إذا أن الشاعر الجاهلي كان لسان قبيلته، يسجّل مآثرها، و يتغنّى بمفاخرها و أمجادها و على رأسها الأمجاد الحربية، وصوّر ذلك تصويرا قويًّا دريد بن الصمة شاعر عشيرة غزية قائلا:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ❀ غويت و إن ترشد أرشد[1]

و الشعر هو العلم الذي لم يكن للعرب علم أصحّ منه كما قال عمر ابن الخطابرضي الله عنه، ولولاه لضاعت كثير من الأحداث و طمست العديد من مناقب الرجال و مفاخرهم، وقد قيل : " لولا الشعراء لما عرف جود حاتم، و كعب بن أمامة، و هرم تجن نسان، و أولاد جفنة، و إنمّا أشاد بهم الشعر".

فهو إذا الكتاب الجامع لتاريخ العرب، و المسجل لكل أحداثهم، و الشاهد العدل على كل تصرفاتهم، يحفظونه في صدورهم، و يرونه عن أباءهم إلى أبنائهم [2]

و جاء الإسلام... ولم ينكر الشعر على الشعراء شرط موافقته للحق و مساندته لقضية الإسلام تدلّ على ذلك الآية الكريمة:" و الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كلّ وادٍ يهيمون و أنهم يقولون ما لا يفعلون إلاّ الذين آمنوا وعملوا

[1] شوقي ضيف: "الشعر وطوابعه الشعبية" دار المعارف، القاهرة، ط2، د. ت، ص16-17
[2] سامي مكي العاني:" الإسلام و الشعر" عالم المعرفة، سلسلة كتب ينشرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1996، د. ط، ص140

الصالحات و ذكروا الله كثيرا و انتصروا من بعد ما ظُلموا و سيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون" [1]

فالمقصود في بداية النّص القرآني شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء و مسُّوه بالسوء، أما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء منذلك، فقد استثناهم المولى تعالى و هم شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم الذين انتصروا له [2]

كما زكّى الإسلام في الشعر قيمة الصدق مفندا ما سبق اعتقاده في الجاهلية من أن " أعذب الشعر أكذبه !!" فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إنما الشعر كلاك مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن و مالم يوافق الحق منه فلا خير فيه" وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّما الشعر كلام فمن الكلام خبيث و طيب" و قالت السيدة عائشة رضي الله عنها :" الشعر فيه كلام حسن وقبيح، فخذ الحسن و اترك القبيح" [3] وقد صحّ عنه صلى الله عليه وسلم نهيه عن المبالغة في الشعر، من ذلك حين يفد النابغة الجعدي و ينشده قوله:

بلغنا السماء مجدنا و جدودنا ❀ و إنا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

[1] الشعراء، الآية: 223-227
[2] ابن رشيق : "العمدة"، ص 31
[3] ابن رشيق : "العمدة"، ص 27-28

فيقول عليه الصلاة و السلام إلى أين يا أبا يعلى؟ فيقول النابغة: إلى الجنّة، فيقول النبي عليه الصلاة و السلام مغتبطا بهذه الرّوح الجديدة :"إن شاء الله" [1]

و قال حسّان ابن ثابت مو ضحا قيمة الصدق التي زكّاها الإسلام:

و إنّ أشعر بيت أنت قائله ❀ بيت يقال إن أنشدته صدقا

و إنّما الشعر لبُّ المرء يعرضه ❀ على المجالس إن كيِّسا و إن حمُقا[2]

فالإسلام إذا زكّى قيمة الصدق في الشعر بالإضافة إلى مجموعة من القيم السامية الأخرى...منه قد يمكننا القول إن الشعر أصبح مرجعا موثوقا - ربّما- أكثر ممّا كان عليه في الجاهلية

كما ظهر في صدر الإسلام و ما يليه ما يسمّى بالشعر التاريخي، إذ نجد الشعر الإسلامي سجلًا لأحداث المجتمع الجديد، ووثائق صدق لتاريخ هذه الأمة المجيدة في أزهى عصورها و في أحلك ساعاتها، لا يترك حادثة ذات شأن و تأثير في مجرى التاريخ الإسلامي إلّا سجّلها، ومن هنا كانت كتب التاريخ زاخرة بالأشعار المعبرة عن المواقف و الاتجاهات إزاء الأحداث، حين كان المؤرخون يتبعون كلّ حدث تاريخي بمجموعة كبيرة من الأشعار التي أنشدت في مناسبة ذلك الحدث توثيقا له، و توضيحا لجميع جوانبه [3]

[1] سامي مكي العاين : "الإسلام و الشعر"، ص43
[2] ابن رشيق : "العمدة"، ص 114
[3] ينظر:سامي مكي العاين : "الإسلام و الشعر"، ص 141

و تعدّ قصيدة الشاعر الإسلامي صرمة ابن قيس الأنصاري أشمل القصائد التي وثقت أحداث الدعوة بأسلوب فتي رفيع، ومنها على سبيل المثال، قوله:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ❀ يذكر لو يلقى صديقا مواتيا

و يعرض في أهل المواسم نفسه ❀ فلم ير من يؤوي و لم ير راعيا

كما حاول الشعراء استقصاء غزوات الإسلام الأولى و إحصاءها، و سرد الوقائع بأسلوب يمتزج بالعاطفة الدينية والفخر الإسلامي الجديد

من ذلك ما نظمه حسّان بن ثابت، مفتخرا بالأنصار الذين شاركوا في جميع الغزوات:

قوم همو شهدوا بدرا بأجمعهم ❀ مع الرسول فما آلوا و ما خذلوا

ويوم صبّحهم في الشعب من أحد ❀ ضرب رصينٌ النّار مشتعل

وغزوة يوم نجد ثمّ كان لهم ❀ مع الرسول بها الأسلاب و النفل

وفي كتب السيرة و التاريخ عشرات القصائد الطويلة التي قيلت في كلّ غزوة من تلك الغزوات... حيث كان الشعراء من أبطالها المشاركين فيها، فكانت أشعارهم أصدق شاهد على مجرياتها و أحداثها [1] وكانت تلك هي مظاهر حضارتها

[1] ينظر: سامي مكي العاين : "الإسلام و الشعر"، ص 142-143

والشاهد في كل ما ورد ذكره، هو أن الشعر سواء في الجاهلية أو في الإسلام ساهم في توثيق مشاهد المجتمع

و مجريات الحضارة و تصاريفها من أبرز وجوهها المتمثل حينها في الغزوات و الفتوحات إلى أدق تفاصيلها، و زادت قيمة تلك الشواهد حين دعمت بقيمة الصدق التي حث عليها الإسلام و أكد عليها... و ظلّ الشعر موثقا و شاهدا صادقا على مظاهر الحضارة الجديدة من صدر الإسلام وصولا إلى عصور الإسلام المتأخرة من العصر الراشدي إلى الأموي إلى العباسي إلى الأندلسي حيث عرفت الحضارة ازدهارا كبيرا ووصلت مظاهرها إلى الأوج و القمة مع ما لطبيعة الأندلس من سحر.

# الفصل الأول
# الشعر في حضارة الأندلس

## المبحث الأوّل: بيئة الشعر الأندلسيّ

بيئة الشعر الأندلسيّ أو ما يمكن أن نسمّيها بعبقرية الزمان والمكان بحسب الباحث زكرياء عناني،إذ إنّ لكلّ إبداع أدبي مجاله الزماني و المكاني الذي يولد فيه، ولا يمكن الاطلاع على أصالة و عمق أي عمل أدبي دون معرفة البيئة التي ولد فيها، ونحن في الأندلس أمام فترة متسعة الأطراف زمانيا و مكانيا فهي "تبتدئ بالفتح الإسلامي للأندلس سنة 92ه ، وتمتد حتى سقوط غرناطة سنة 898ه ، كما تطلق تلك التسمية على كلّ الأقاليم المفتوحة من شبه الجزيرة الأيبيرية" [1]

وإذا شئنا الحديث عن الملامح العامة لهاته البيئة التي نشأ فيها الشعر خاصة في نواحيها الحضارية ابتداء من الطبيعة ووصولا إلى العمران، سنجدها كالتالي:

1 ـ البيئة الطبيعية:

" الأندلس عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوربا تطوّقها سلسلة جبلية من أهم جبالها ، جبل قرطبة المعروف عند المؤرخين الغرب باسم جبل العروس، كما تجري بالأندلس عدّة أنهار".[2]

[1] محمد زكرياء عناني : "تاريخ الأدب الأندلسي"، ص 7
[2] حسين يوسف أويزار : "المجتمع الأندلسي في العصر الأموي " مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط 1 ، 1994، ص 337

و قد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضها و بساتينها و جناتها العامة التي كانت متاحة للجميع كي يتمتعوا بها ، و لذلك فقد تميز الأندلسيون بنزعة جمالية و ميل كبير لحبّ النبات و الورود و الأزهار و زراعة الأشجار ، و نلمس ذلك بوضوح في البيوت و الدّور، فضلا عن العائر و القصور ، بل حتيّ في أفنية المساجد ... "حيث عرف الأندلسيون عادة زرع أشجار الليمون و البرتقال في المساجد كما هو الحال في صحن مسجد قرطبة ".[1]

وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب في حديث له عن بلاد الأندلس:خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرّيع و غدق السقيا ، و لذاذة الأقوات ، و فراهة الحيوان و درور الفواكه ، و كثرة المياه، و تبحر العمران ، و جودة اللباس و شرف الآنية و كثرة السلاح ، و صحة الهواء و ابيضاض ألوان الإنسان و نهل الأذهان و قبول الصنائع و شهامة الطباع ، و نفود الإدراك ، و إحكام التمدّن ، و الاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار ممّا سواه ."[2]

وقال أبوعامر السالمي في كتابه الموسوم "درر القلائد و غرر الفوائد": الأندلس من الأقليم الشامي ، و هو خير الأقاليم ، و أعدلها هواء ،و ترابا و أعذبها

[1] نفسه ص 246
[2] المقرى :" نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب " ج1، ص125 -126

ماء و أطيبها هواء ، و حيوانا و نباتا ، و هو أوسط الأقاليم ، و خير الأمور أوسطها "[1].

وإضافة إلى ماحباها الله به من طبيعة ساحرة ، كانت جزء أصيلا من حضارة الأندلس، نجد إضافة إلى ذلك ، اليد الماهرة الصناع التي عرفت كيف تتعامل مع الطبيعة الجميلة فتنسقها في حدائق و رياض و برك و نوافير و أزهار مختلفة .

2- البيئة الاجتماعية:

- طبيعة المجتمع الأندلسي :

عند الحديث عن الحياة الاجتماعية يمكن القول أن هنالك عوامل تأسيس حضاري كانت متاحة للعرب، كامتزاج العناصر و توحّد الأجناس و اختلاط الشعوب و جمال البيئة و خصوبتها و الخيرات الدافقة التي تتميز بها طبيعة الأندلس.

"كل تلك العوامل ساهمت في تكوين حياة جديدة شبيهة بحياة دمشق و بغداد."[2]

[1] نفسه ، الصفحة نفسها
[2] محمد رضوان الداية :" في الأدب في الأندلس " ، دار الفكر المعاصر ، ط1 ، 2000 ص18 -19

و إنّ الحديث عن تمايز الأجناس في المجتمع الأندلسي يعود بنا إلى الفتح الإسلامي باعتباره البوابة التي فتحت لهذا التمازج بابا واسعا"... "و إنّ أهم عنصرين دخلا الأندلس بعد الفتح هما العرب و البر بر".[1]

إلى جانب العرب و البربر نجد السكان الأصليين على اختلاف دياناتهم، و منهم الذين اعتنقوا الإسلام ، و يُدعَونَ المسالمة، و منهم من بقي على دينه، و يسمّون المستعربة و منهم من نشؤوا و تربوا في ظل الإسلام و يسمّون المولّدين، و قد أسهموا بقسط وافر في بناء الحضارة الإسلامية ... "و قد عاملت الدولة الإسلامية هؤلاء جميعا بروح التسامح و فتحت الأفاق أمام المسيحيين و اليهود على حدّ سواء ليشاركوا في الحياة السياسية و الاجتماعية".[2]

و قد عاش الأندلسيون عموما على نمط يشبه نمط معيشة العرب في المشرق في جميع نواحي حياتهم ، السياسية و الاجتماعية و العقلية و الفنية ...أما الحياة الاجتماعية فقد عمّ التأثر فيها كل شيء ، " إذ نرى الخلفاء يهتمون بالغناء و الموسيقى على نحو ما كان يجري في بلاط هارون الرشيد و المأمون ... أمّا الحياة العقلية فقد كان التأثر فيها بالمشرق بينا واضحا ، وقد تتبع صاحب "نفح الطيب "

[1] محمد حسن فجّة : "محطات أندلسية دراسات في التاريخ و الأدب و الفن الأندلسي " الدّار السعودية للنشر و التوزيع ، دط ، دت ، ص205 - 206

[2] سامية جباري : "الأدب و الأخلاق في الأندلس في عصر الطوائف و المرابطين "، دار قرطبة ، الجزائر ط1 ،2009 ، ص44 - 45

من رحلوا من المشرق إلى الأندلس للثروة أو المجد العلمي و الشهرة، فأقبل الأندلسيون على هؤلاء العلماء الوافدين عليهم يأخذون عنهم و يتعلمون".[1]

أمّا من الناحيتين الفنية و العمرانية . التي سيأتي ذكرها "فقد قلّد الأندلسيون المشرقيين في التسري و في العمران و زادوا عليهم في الإكثار من الحمامات بعد أن شغفتهم النظافة".[2] "و في مجال الموسيقى و الغناء ازدهر كلّ منهما في الأندلس الأندلس و ساعد على هذا الازدهار عدّة عوامل منها ميل أهل الأندلس بصفة عامّة للموسيقي وولع الكثير من الأمويين بها و إجزالهم العطاء لأهلها، و كذا قدوم العديد من مشاهير المغنين و المغنيات من المشرق إضافة إلى الموشحات و الأزجال"[3] التي ابتكرها الأندلسيون باحتفالاتهم بالأعياد و المواسم و ما كان يرافقها من الوفود الوفود و التهاني لرجال الدولة و ما يتبع ذلك من الولائم و الأعطيات ، كاحتفالهم بالمولد النبوي الشريف ... "كما شارك المسلمون أهل الذمة في بعض احتفالاتهم على أساس من نظرة الاحترام و التسامح الدّيني و الحياة المشتركة ، و هناك أعياد قومية أو شعبية مثل عيد "العصر" الذي يُحتفل به عند جني العنب ، بالإضافة إلى احتفال الأندلسيين بعيد النيروز الفارسي الأصل و مهرجانه السنوي".[4]

---

[1] شوقي ضيف : "الفن و مذاهبه في نشر الشعر العربي" ص413 - 414

[2] محمد سعيد الدغلي : " الحياة الاجتماعية في الأندلس و أثرها في الأدب العربي و في الأدب الأندلسي"منشورات دار أسامة ، ط1 ، 1404هـ - 1994م ص69

[3] حسين يوسف أويزار : "المجتمع الأندلسي في العصر الأموي "

[4] ينظر: نفسه ص203-204-205

أمّا على المستوى العقلي العلمي، عرفت الأندلس مراكز علم و ثقافة كالمساجد و المكاتب و القصور و الدّور و غيرها، كما قدر الأمويون العلم و العلماء و بلغ بهم أن نصبوا الفقهاء مناصب الدولة كالفتيا و القضاء.."[1]

"و في عصر الخلافة نهضت الحركة العلمية و الثقافية في الأندلس نهضة شاملة و ازدهرت ازدهارا عظيما كان من مظاهره وضوح الشخصية العلمية و الثقافية للأندلس، واستقلالها إلى حدّ كبير".[2]

**من مظـاهر الحـياة الاجتماعية :**

**العـــمران:**

لقد بلغت الأندلس عموما و قرطبة على وجه الخصوص في عصر الخلافة الأموية وما تلاها أوج عظمتها ، و تسمت ذروة ازدهارها الفني و تألقها الحضاري، و قد استدعى ثراء الدولة و انتشار البذخ وتوسع العمران ، فعلى سبيل المثال بنى الناصر مدينة الزهراء .

" و قد ذكر المؤرخ أبو حيان أنّ مباني الزهراء قد اشتملت على أربعة آلاف سارية وأن مصارع أبوابها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب".[3] وبنيت

[1] المرجع السابق ،ص275
[2] نفسه ،ص388
[3] محمد سعيد الدغلي: "الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها الأدب العربي و الأدب الأندلسي" ص54

الزهراء قريبا من الزهراء "و يحكى أن العمارة في مباني قرطبة و الزهراء و الزاهرة اتصلت إلى أن كان يمشي فيها بضوء السراج عشرات الاميال[1] و إلى جانب بناء القصور كان هنالك أول الأمر بناء المساجد التي تعتبر مقر العبادات و مركز الاتساع الحضاري ، و قد انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الدّاخل إلى أربعمئة و تسعين مسجدا ثم زادت بعد ذلك كثيرا ، و كان عدد شرفاتها أربعة آلاف و ثلاثمئة."[2]"و قد زين الأندلسيون مساجدهم في مسجد قرطبة مئة و ثلاث عشرة ثريا للوقيد أكبرها واحدة تحمل ألف مصباح"[3]

فكانت هذه السعة في العمران و هذا الاهتمام بالنقش و التزيين مصدر اعتزاز و فخر الأندلسيين . و لعلّ من أهم المساجد الأموية في الأندلس "المسجد الجامع بتطيلة في أقصى الشمال من الأندلس ، و المسجد الأموي بإشبيلية ..."[4]

و من القصور الأموية في الأندلس : قصر الأمارة الذي بناه عبد الرحمان الدّاخل و قصر الدّمشق الذي يذكر أنه شيّد بالصفاح و العمد و أبدع بناؤه و نمقت ساحاته . و قصر الزهراء و الزاهرة اللذين سبق ذكرهما ، ومن عجائب القصور التي ترويها كتب التاريخ و بخاصّة نفح الطيب : و بهو الخليفة في قصور الزهراء و الذي شيّدت جدرانه بالرخام و طليت مع سقفه بالذهب و الزخارف

[1] نفسه ص54 نقلا عن" نفح الطيب" ج4 ص78 و79
[2] نفسه ،صفحة نفسها
[3] نفسه ،ص55 ، نقلا عن ظهر الاسلام ص 12
[4] محمد حسن فجة :"محطات أندلسية" :"دراسات في التاريخ و الأدب و الفن الأندلسي " من ص59 إلى ص66

الاسرة و أقيمت في البهو فوارة فيها تمثال نادر... و وسط البهو حوض مملوء بالزئبق ...و حينما تدخل أشعة الشمس من الأبواب تنعكس على الزئبق فتملأ البهو بريقا يأخذ العيون و الألباب ."[1]

"ومن القصور العظيمة أيضا قصر باديس بغرناطة،الذي ليس ببلاد الإسلام و الكفر مثله فيما قيل و هذا القصر الذي غنّاه لسان الدين الخطيب في قصيدته السينية المذكورة في الباب الخامس من القسم الثاني من كتاب "نفخ الطيب " على حدّ قول صاحبه ."[2]

كما عرفت الأندلس بناء الحمامات ، و يذكر المقرى في نفح الطيب أنّ عدد الحمامات المبرزة للناس سبعمئة حمّام و قيل : ثلاث مئة حمام." و قال بن حيان : إنّ عدد المساجد عند تناهيها في مدّة آبن أبي عامر ألف و ستمائة مسجد و الحمامات تسعمئة حمّام "[3] . وفي عهود الأندلس المتقدمة و بالرغم من التدهور السياسي في عصر ملوك الطوائف، فقد اعتبر أزهى عصور الفن و العمارة بالأندلس ..." و من أهم قصور ملوك الطوائف قصر ابن ذي النون في الطليطلة و قصر الجعفرية بسرقطة و قصر القبة بمالقة. "[4]

---

1المرجع السابق : ص70-71-72

[2] المقري : "نفخ الطيب ج"1" ،ص196

[3] المقري:" نفخ الطيب " ج1 ص540

[4] محمود السيد :" تاريخ العرب في بلاد الأندلس " ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، 2005 ، دط ص138

كما لا يمكن إغفال الحديث عن قصر الحمراء بغرناطة الذي بناه حكّام بني الأحمر بعد سقوط دولة الموحدين، و قد استخدمت فيه العناصر الزخرفية الرقيقة في التنظيمات الهندسية، كزخارف السّجاد "وهو باختصار تحفة أخرى من التحف المعمارية التي زخرت بها حضارة الأندلس " و من أشهر أجنحة هذا القصر بهو الأسود و فيه تتجسد مهارة المهندسين المسلمين في إبداع الفوارات و زخرفة الحدائق العامة و الخاصّة" .[1]

و قد زيّن صنّاع غرناطة المهرة الأيام الأخيرة لحضارة مشرفة على الزوال بأبدع نماذج لِما تستطيع أن تأتي به عبقرية الإنسان و قنه في مجال الزخرفة، ذلك أنّهم صنعوا بمواد بسيطة كتلا ضخمة قوية بسيطة و أبراجا معمارية مثل برج "قمارش" و "باب العدل" في الحمراء، و إنشاءات لطيفة منسقة تتسم بالأصالة مثل فناء قصر البركة... "و قد شيدوا في الوقت نفسه تحصينات أهم من تحصينات الموحدين الأندلسية التي أبقى عليها الزمن وازدادت غرناطة ثراء بالعمائر العامة ، من دور و قصور منمقة بفن شائع بديع ".[2]

## مظـاهر التفوق الحربـي فـي حضارة الأنـدلس:

[1] موقع ويكابيديا ، " قصر الحمراء" - www .wikipidia.org
[2] ج،س كولان :" الأندلس" "ترجمة لجنة دائرة المعارف الإسلامية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت و دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ط1ظن 1980، ص172- 173.

إن من أهم مظاهر التفوق الحربي في حضارة الأندلس الأسطول البحري الأندلسي ، و لقد تعود الأندلسيون الاحتفال بأساطيلهم عندما يرجع ظافرا من حرب، حيث تقوم الأساطيل بألعاب و مناورات بمرأى عظماء الدولة "و كان الأسطول يضمّ بروجا و قلاعا و توابيت و منجنيقات و مكاحل بارود, و نفطا و مقاتلة... وأنواعه كثيرة منها :الشواني، وتحمل ما بين المائة والخمسين والمائتين, البوارج وهي أكبر من الشواني ،السطات والحرقات المجهزة بالمنجنقات والعرادات،وهي في صورة الأسد الفيل والعقاب،الطرائد وهي التي تحمل الخيل، الغوافير وهي تحمل المؤن ،والساندیات وهي الفلائك..." كما استعملوا الأسطام في أول السفينة ،وكان مثل سنان رمح بارز في مقدمة السفينة وبها يهاجمون أعداءهم فنغرق بالحرق".[1]

وقد تولي أمويّون الأندلس بناء أساطيل بحرية قوية وكان ذلك العمل ضرورة عسكرية وسياسية نظرا لطول شواطئ الاندلس على المتوسط والاطلسي ووقوع جبل طارق بينهما بأهميته البالغة وقد بنى عبد الرحمن الداخل في اشبيلية دارلصناعة السفن ووضع نظاما لجنود البحر وأسلحتهم وتموينهم ورواتبهم، فهو في الواقع المؤسس الحقيقي للقوة البحرية الاندلسية ،وحينما وصل عبد الرحمن

[1] بحث تاريخي عن الحضارة الإسلامية في الأندلس ، منتدى البحوث العلمية، منتدى ستوب forum.stop55.com-

النّاصر إلى سدّة الخلافة 300-350هـ، أصبح الأسطول الأندلسيّ قوة جبارة، فرضت سيادتها المطلقة على غربي المتوسط، كما تحدثنا المصادر التاريخية عن قوّة الأسطول الأندلسي وإسهامه في فتح صقلية..... كما فتح هذا الأسطول سردينيا بقيادة أمير البحر أبي خروب".[1]

كانت تلك هي البيئة التي تربى فيها الشعر الاندلسي وترعرع ،غنية بالمظاهر الحضارية وقد امكننا ملاحظة ذلك من خلال منجزتهم في العمران ولمستهم على الطبيعة الساحرة ... تلك هي البيئة، فكيف كان الشعر؟

[1] ـ محمد حسن فجة :"محطات أندلسية" :"دراسات في التاريخ و الأدب و الفن الأندلسي" ،ص205-206

## المبحـــث الثاني: الشعر الأندلسي

بعد حديثنا عن البيئة التي احتضنت الشعر الأندلسي والتي مثلت له المحضن الرئيسي ،لا بد ان نذكر أن هنالك عوامل أخرى ساهمت في نشأة هذا الشعر منها:

1- جهود طبقة المؤدبين: الذين قصدوا المشرق وعادوا منه بالعلم والأدب وعلموه للأندلسيين ،إضافة إلى تشجيع الحكام يومئذ لتلك الطبقة وحثها على تعليم ما جاءت به في جامع قرطبة أو غيره من مساجد الأندلس .

2- حركة الغناء: التي كان من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البيئة الأندلسية".[1]كما بذل الحكام المال في استقدام المغنيين والمغنيات من الجواري والقيان من المشرق.

3- النهضة الثقافية: فالعمق الثقافي سمح للشعر بأن ينأى عن روح التقليد و عن سطحية الغناء ،كما شجع أولوا الأمر المؤلفين على التأليف ، ففي عهد المنصور على سبيل المثال "دخل الحياة الأدبية تنظيم لم ....نسمع به من قبل هذا ، فقد جعل للشعراء ديوان قيّدت فيه أسماؤهم ، و قدرت عطاياهم بحسب مراتبهم من الشعر "[2]

[1] إحسان عباس : "تاريخ الأدب الأندلسي" دار الشروق ، ط1 2001 ،ص52
[2] نفسه ، ص نفسها

"و نتيجة لتلك العوامل و غيرها من المؤثرات السالفة الذكر شاع الشعر في الأندلس شيوعا واسعا ، وانتشر في جميع الطبقات ، فزاوله الملوك و الوزراء، و أنشده القضاة و العلماء و قاله الأعمى المتسول و البائع المتجوّل ."[1]

و كان الشعر في الأندلس لغة الجميع فهو للعمال و الفلاح أنشودة الجمام بعد التعب . و هو للكاتب و الوزير و الأمير انفلاتة من عبودية الهموم و المهام و هو للشعراء الرسميينأحيانا وسيلة تكسب ...كما أنه مجال لانطلاق الفن ، و هو للجميع موضع فخر و مباهاة ...." و الأندلسيون يميلون إليه لأنه "ينطلق من الشفاه ألحانا و أنغاما , لأنه موسيقى قبل أن يكون خطابا". [2]

**الأدوار التاريخية للشعر الأندلسي :**

مّر الشعر الأندلسي بالعديد من المراحل التاريخية ، "فالدولة هناك في الأندلس مرّت بمراحل عديدة من ارتفاع و انحدار و لم تخضع هذه التحوّلات الحادة لمنطق واضح ، و هكذا يخضع الأدب بدوره لهذا التأرجح بين القمة والحضيض..."[3]

وإننا عند الحديث عن نشأة الشعر الأندلسي ، لا نتكلم عنه كما نتكلم عادة في تاريخ الآداب النامية ، " فالشعر الأندلسي شعر أمّة جاوزت مراحل طفولتها البدائية

[1] حنا الفاخوري : "تاريخ الأدب العربي ، الأدب القديم "، دار الجّيل لبنان ، ط1 1986م ، ص35

[2] نفسه ، ص36

[3] محمد زكريا عناني : "تاريخ الأدب الأندلسي" ، دار المعارف الجامعية ، 1999 ، دط ، ص73

منذ الفتح و تركزت السلطات السياسية فيها و التمازج الاجتماعي ."[1] فالأندلسيون نقلوا إرثا مشرقيا، فمثلت الأندلس بذلك المتكأ الحضاري للمشرق ، و قد مرّت بعدّة مراحل منها :

1 ـ عهـد الفتوح و الوّلاة:

صحيح أن العرب انشغلوا في بداية حياتهم في الأندلس بالفتوحات و المعارك العربية و الغزوات ، و لكنّ الراجح بالاستنادإلى "ملازمة الشعر و الفن لكل حركة اجتماعية ناشطة في حياة الشعوب و الأمم و إلى تعلق العرب القوي بالشعر ورسوخ فن الشعر لديهم ." أن هنالك أشعارا قيلت تعبيرا عن مشاعر الفاتحين الأول".[2]

ومع ذلك فإنّ الشعر في هذا العهد ظل مجرّد " صدى للشعر المشرقي في معانيه و أساليبه ".[3] و أغراضه و أشكاله التعبيرية إجمالا ، و هكذا" يمكننا الترجيح بأن الشعر الأندلسي قد نشأ نشأة اتباعية تقليدية خالصة" .[4] و لو أنه تطور فيما بعد

[1] ميشال عاصي : " الشعر و بيئته في الأندلس "،ص51
[2] نفسه ، ص52
[3] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص936
[4] ميشال عاصي : " الشعر و البيئة في الأندلس "ص53

بفعل العوامل السالفة الذكر . و من شعراء تلك الفترة : "بكر الكناني ، عباس بن ناصح ، و يحي بن حكم الغزال ، و حشانة التميمية" . [1]

"و قد ظهرت في هذا العهد، الأراجيز التاريخية كما ظهرت الزهديات إلى جانبه إضافة إلى الموشحات" .[2]

2 ـ عهد بني أميّة :

في هذا العهد ازداد الشعر انتشارا نتيجة الحركة العلمية و الأدبية و ما أولاه الحكام إيّاها من اهتمام ، ونطالع في بداية هذا العهد 138هـ /755م أولى الآثار الشعرية المعروفة و من جملة أصحابها من الشعراء، يرد اسم عبد الرحمن بن معاوية بن هاشم بن مروان المشهور بعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية ، و نذكر له أبيات متفرقة أغلبها في الحنين ، منها قوله :

"أيُّهَا الرَاكِبُ المِيْمَ أرْضِيْ ❀ أغِيْرُ مِنْ بَعْض السَلاَمِ لِبعْض

إنّ جِسْمِيْ عَلِمَتْ بِأرض ❀ وَ فُؤَادِيْ وَمَا لِكِيْهِ بِـأرْض

و قوله يخاطب نخلة :

يَا نَخْلُ أنْتِ غَرِيْبَةٌ مِثْلِيَ ❀ فِيْ الغَرب نَائِيةٌ عَنْ الأصْل

[1] حنا الفاخوري : " الجامع في تاريخ الأدب العربي " ص936
[2] نفسه ،ص937

فَابْكِيْ وَ هَلْ تَبْكِيْ مُكَمَّمَةٌ ❀ عَجْمَاءُ، لَمْ تُطْبَعْ عَلَى خَبَلِ."[1]

و قد اشتهر إذ ذلك جملة من الشعراء منهم :" ابن عبد ربه 339هـ صاحب العقد الفريد و ابن هانئ الإلبيري 362هـ و الزبيدي 379هـ و ابن دارج القسطلي و ابن برد 394هـ. "[2]

3 ـ عهد الإمارات :

اشتد في هذا العهد التنافس بين حكام الإمارات المختلفة في طلب العلم و الأخذ بأسباب الأدب و تقريب الشعراء ، "بل تنافسوا في نظم الشعر ، كما كانوا يتراسلون بالشعر. "[3]

فاستطاعت الأندلس عن طريق هذا التنافس أن تظفر بأكبر حظ من النشاط العلمي و الأدبي ، و ذهب الباحثون بالتالي إلى إمكانية أن "يعدّ عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الأندلس من الوجهة الحضارية". [4]

"و مع ذلك فإن الشعر نهض في هذا العهد نهضة ظلت في حدود الصورة العامة للشعر العربي ."[5]

---

[1] ميشال عاصي : " الشعر و بيئته في الأندلس "،ص54-55
[2] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص937
[3] نفسه ، ص نفسها
[4] شوقي ضيف :"الفن و مذاهبه في الشعر العربي "، دار المعارف ، القاهرة ، ط10، دت ، ص432
[5] نفسه ، الصفحة نفسها

و قد اشتهر في ذلك العهد المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية 461هـ " و ابن زيدون 364هـ و أبو بكر بن اللبانة الدّاني 507هـ "[1] و غيرهم من الشعراء.

4 ـ عهد المرابطين :

عرفت هذه الفترة ما يسمى بالفتنة البربرية. و لا شك أن الشعر الأندلسي تأثر بهذه الفتنة ،"و بدى و كأنه يلفظ آخر أنفاسه, كأن كيانه ناء بثقل النازلة, و انطوى على نفسه إلى حنين ، فانصرف نفر من أهل العناية و الضبط إلى تخليد كنوز هذا الأدب و صيانته من الضياع ، فكان هذا العصر عصر تصنيف مجموعات المختارات العظيمة ، "كالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " للشنتريني و "قلائد العقيان" لآبن خاقان ..."[2] "زد على ذلك أن المشرق كان إذا ذاك في انهيار و لم يبق له على الأندلس إلا أثر ضئيل ، و يمكن بذلك القول أن الشعر في هذا العهد انحط انحطاطا مشؤوما..."[3]

ـ عصـــر الموحدين:

تمتعت الأندلس في هذا العصر بالأمان و الهدوء ، فوصلت العلوم حينها إلى ذروتها ، و ظهر من رجالها أعلام أمثال : "أبي العلاء و ابن اليبطار ، و استمر

[1] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص237
[2] حسين مؤنس،"الشعر الأندلسي "ص27
[3] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص238

كذلك إقبال الشعراء على صوغ القريض و استمر حماس الناس لشعرهم ، كما تألقت مجموعة من الشواعر منهن : حفصة الركونية..."[1]

6 ـ عهد بني الأحمر :

هو عصر مملكة غرناطة ، ولا يُجمل الخصائص الشعرية في هذه المرحلة إلا كلمة واحدة، هي في رأى حسين مؤنس أنه كان "ذيلا على تاريخ الأندلس."[2]و مع ذلك اشتهر فيه مجموعة من الأعلام على "رأسهم الوزير لسان الدين بن الخطيب 713-776هـ و الوزير محمد بن يوسف الشريحي المعروف بابن زمرك 734-796هـ "[3].

"و قد كان الأول كاتبا مكثرا و أديبا بليغا و مؤرخا و شاعرا، و كان الثاني تلميذ الأول ."[4] و قد قدّر لهم أن يختما حوليات الأندلس المجيدة أقوى ختام و أعظمه.

**ـ موضوعات الشعر الأندلسي :**

[1] حسين مؤنس،"الشعر الأندلسي "ص34،35
[2] نفسه ص37
[3] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص938
[4] حسين مؤنس،"الشعر الأندلسي "ص37

لقد تناول الأندلسيون في شعرهم جميع الموضوعات التي تناولها المشارقة من "مدح و رثاء و غزل و خمر ووصف و حماسة و فخر و هجاء و زهد و حكمة وما إلى ذلك" .[1]

كما أن هنالك بعض المحاولات الملحمية "كأرجوزة آبن عبد ربه التي وصف فيها غزوات عبد الرحمن الناصر و فتوحه ، و هي تبلغ أربعمائة و خمسين بيتاو هي أقرب إلى التاريخ منها إلى الشعر .

و على الرغم من التقليد الذي عرفه الأندلسيون بالمشرق إلا أنهم استقلوا في بعض الأغراض الشعرية حيث أكثروا فيها و أضافوا خصائص ميزتهم عمّن سواهم بحكم البيئة الجديدة و العوامل الجديدة أيضا ."كما هو الحال في الوصف ، و رثاء الممالك البائدة ، و الشكوى و الاستنجاد و نظم العلوم و الفنون".[2]

**1 - الوصـف:**

[1] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص939

[2] " الموجز في تاريخ الأدب العربي و تاريخه " و ضعه لجنة من الأدباء و الأساتذة بالأقطار العربية ، دار المعارف ، لبنان ، دط ، دت، ص51

أوغل فيه الأندلسيون بشدّة و أكثروا فيه من التشبيه . "كما ركزوا على دقائق الأمور و أطالوا الكلام فيها كما يفعل أصحاب النقش و النمنمة."[1] و هم أكثروا فيه لدرجة يمكننا أن نستخلص من شعرهم صورة للبيئة الأندلسية في شتى نواحيها.

فقد و صفوا الأندلس بمدنها و منتزهاتها و أزهارها و ثمارها، و ربيعها و شتائها ، ووصفوا بحيراتها و سواقيها و أنهارها و كل ما هناك من مناظر الطبيعة كما و صفوا الصناعات و الولائم و المآكل ، و الزينة و العطور و الأقمشة و المعارك و الجيوش ، و الموسيقى و الرقص ، و اللهو و المجون ...

**2- رثاء المماليك البائدة:**

هذا الغرض كان نتيجة الانقلابات السياسة و تطويح الدهر بالدولة، و الواقع أن مأساة الأندلس من أشد المآسي التي وقعت في التاريخ فهي تحطّم حضارة زاهرة ومعالم إسلامية ، و أمّة فقدت حياتها الدينية و الفكرية و الحضارية ...

"و قد مست النكبة كل شيء...حتى الدين في معالمه من مساجد و مآذن و محاريب و مراكز إشعاع و حولتها إلى أطلال و رسوم."[2]

---

[1] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص940

[2] شاهر حوض الكفاوس،" الشعر العربي في رثاء الدولة و الأمصار حتي نهاية سقوط الأندلس" رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ،كلية اللغة العربية ، إشراف د. حسن محمد باجوره 1984-1404هـ ,ص287

فوقف الشعراء على تلك الأطلال يتأملونها و ينتدبون عزّها الحائل و مجدها الزائل ." فبكى آبن اللّبانة على دولة العبّاديين ، و آبن عبدون على دولة بني الأفطس ، و ندب أبو البقاء الرّندى حظّ الأندلس بعد أن استردها الإسبان.[1]

**3- الشكوى و الاستعطاف:**"هما نوع من الشعر جاءت به قراء الوزراء و أرباب السلطة بعدما نالهم من الطوارئ و المحن فأضحوا في ذل بعدما كانوا في عزّ..."[2]

**4 - الاستنجاد :**

هو وليد الضعف في البلاد و الخوف من الأعداء ، و يمكننا القول أن هذا اللون من الشعر الأندلسي الطابع و الصبغة فقد ترعرع في الأندلس ، و أصبح من الأغراض الثابتة التي فجرت ينابيعه النكبات المتلاحقة "بدءا بسقوط الخلافة الأموية و إلى آخر عهد الأندلس الإسلامي ، فالمعارك الخارجية و الفتن الداخلية ظلت مستعرة الأوار طيلة هذه الفترة ."[3]

[1] " الموجز في تاريخ الأدب العربي و تاريخه " ص801
[2] نفسه، الصفحة نفسها
[3] شاهر حوض الكفاوس،" الشعر العربي في رثاء الدولة و الأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس"ص288

"و قد ألقت بظلالها على الشعراء - و هم أرق الناس أفئدة- فكان "الشعر هو الرسول الفصيح الذي ينطلق بسرعة عبر الأسوار و الحصار و فوق البحار ليشحن نفوس المستغاث بهم حماسة و إقداما ."[1] لأجل الإغاثة.

و من أشهر الأصوات المستغيثة صوت الفقيه الحافظ بن عطية الذي أرسل بقصيدة يقول فيها :

وَ نحَوِ أمِيْرِ المُسْلِمِيْنَ تَطَامَحتْ ❁ نَوَاظِرُ آمَالٍ وَأبْدِيْ رَغَائـــبُ

مِنَ النَاسِ مَنْ يَسْتَدْعِيْ حَفِيْظَةَ عَدْلِهِ ❁ لِصَدْمَةِ حُوْرٍ فِيْ مَيْورُقَ نَاصِـــبِ

لِقَتْلِ وَ سَبيْ وَ اصْطِلاَمٍ شَرِيْعَةٍ ❁ لقَدْ عَظُمَتْ فِيْ القَوْلِ سَوْءَ المَصَائِبِ."[2]

## 5 - نظم العلوم و الفنون :

كثر هذا النوع لتسهيل حفظ العلوم ، فكان من ذلك أرجوزتين في العروض و التاريخ "لآبن عبد ربه ، و اللامية و الرائية للشاطبي في القراءات و رسم المصحف" .[3]

## المميزات العامة للشعر الأندلسي :

[1] نفسه، ص289

[2] شاهر حوض الكفاوس،" الشعر العربي في رثاء الدولة و الأمصار حتي نهاية سقوط الأندلس " ، ص290

[3] " الموجز في تاريخ الأدب العربي و تاريخه "

يتميز الشعر الأندلسي بجملة من الخصائص و المميزات لمحته بصفة خاصة و تغطي المظاهر الحضارية من خلاله حركة رقيقة تنساب بسهولة عبرأذن المستمتع ، فهو على حدّقول حنا الفاخوري:

1- بستان شعري :"فالشاعر الأندلسي شديد الارتياح للطبيعة و الشغف بها ، و هو يتحدث عنها في حلّت و ترحاله ، و يجعل ديوانه بستانا من بساتينها ، يتعانق فيه الورد و الياسمين و يتناجى فيه البهار و النيلوفر".[1]

2- فسيفساء شعرية :فالأندلسي متأنق في حياته و أعماله، دقيق الأناقة ، و قد أقام حضارته على الأناقة المترفة و البناء الجميل و الزهرة الحالمة ، و لم يكن الأدب بمعزل عن تلك الروح، و راح الشاعر ينساق وراء مظاهر الحضارة التي ملكت عليه حواسّه لتصبح القصيدة لديه قصرّا من القصور أو جنّة من الجنان ، أو مجلسا من مجالس اللّهو ..."إنه تجربة الحياة أو قل تنفس الحياة الأندلسية و لاسيما بعد القرن الحادي عشر ."[2]

3 - الشعر الأندلسي يتميز بالحياة و التشخيص :فقد شاع التشخيص في الشعر الأندلسي حتّى لتحس أن في الطبيعة مجتمعاعاطفيا شديد التألق.

[1] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص940
[2] المرجع نفسه،ص942

4 ـمزيج غريب: اذ يستخرج الشعراء الأندلسيون من القديم ما ينسجم و مزاجهم و يتناغم و أحوالهم الحياتية.

5ـ يتمتع الشعر الأندلسي بموسيقاه و ألحانه: "فمن يستقرأ الشعر الأندلسي يجده منظوما على أوزان تنسجم و الروح الموسيقية ، و وجد ألفاظه و حروفه و قوافيه تتغنى و كأنها مهرجان من الألحان."[1]

[1] حنا الفاخوري : "الجامع في تاريخ الأدب العربي" ص944

# الفصل الثاني
# الشعر الأندلسي و توثيق المظاهر الحضارية

يختلف الشعر في توثيقه عن التاريخ، وقد نال هذه الحظوة أو الدرجة بما أوتي من "حركة" و من نظرة كلية، فهو - أي الشعر- يعتمد بالدرجة الأولى على "التصوير" و "التصوير يساهم في إعطاء صورة كاملة"[1] و الشعر و التاريخ و إن كانا يتفقان في أن الأحداث الإنسانية موضوع كل منهما، فالشعر يتميز عن التاريخ لا بسبب الوزن، و إنما لكون التاريخ يقتصر على تسجيل ما وقع فقط من أحداث جزئية ... أما الشعر فيتسم بالكلية - كما سبقت الإشارة – لأنه تبيان لكل ما هو عام و دائم و جوهري في حياة البشر و أفكارهم، و بالتالي يصبح أقرب إلى الفلسفة من التاريخ[2] و الشعر في الحقيقة يعبر عن "فلسفة أصحابه"... فتصطبغ المعالم الحضارية و الوقائع التاريخية حين يدونها لنا، بالصبغة العاطفية، فينساب عبر النفوس بسلاسة، إذ غرض الشاعر يتمثل أيضا في "بث الحقيقة المنطوية في غضون كلامه "الجميل"، فيكشف عن الكثير من المعاني الخفية في النفوس، و حقائق الموجودات، و الآراء الاجتماعية و الفلسفية، و صور الإنسان و الإنسانية وبيان منجزاتها عبر العصور المختلفة"[3]. وها هنا عرض مبسط لجوانب مختلفة من حضارة الأندلس، وثقها الشاعر الأندلسي في شعره، لتصلنا في قالب رائع، نحاول سبر غوره قدر المستطاع.

[1] الجاحظ, "الحيوان"، الكتاب الأول، شرحه و حققه عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى اليابي الحلي و أولاده، مصر، ط 2، ص 132.
[2] ألفت كمال الروبي، "نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد"، دار التنوير- لبنان– ط 1، 1983، ص 89.
[3] أحمد ضيف، "بلاغة العرب في الأندلس"، دار المعارف، تونس، ط 2، 1998, ص 47.

## المبحث الأول: توثيق المظاهر الطبيعية.

بهر الفاتحون من المسلمين بطبيعة الأندلس ... وكان منهم و لا شك الأديب و الشاعر، بما ينطوي عليه كل منهما من حس مرهف و إحساس جميل بالموجودات - و إن كانت تلك هي السمة الغالبة على مسلمي تلك الأزمان عموما.

و إننا إذ نطالع في أشعارهم الطبيعة نحسب أن فيها "مجتمعا إلى جانب المجتمع البشري، مجتمعا عاطفيا شديد التأنق"[1]. كما " مزج الأندلسيون كثيرا بين وصف الطبيعة و العديد من الأغراض الأخرى كالوجدانيات و الحنين و الغزل"[2] و نلاحظ أن الشاعر الأندلسي في توثيقه لمظاهر طبيعة الأندلس غالبا ما يلصق به عنصر المرأة. و الألوان منها تشير بطريقة ملحة إلى حالات العاشق و المعشوق، فالأصفر يشير إلى المحب الولهان الذي ذاب نحولا و أرقا ... و الأحمر يرمز للفتاة المغناج التي تستلذ تعذيب الحبيب، كما يشير إلى الحياء.[3] قال جعفر ابن محمد المصحفي، يصف سفرجلة:

و مصفرة تختال في ثوب نرجس ❀ و تعبق عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب و قوة قلبه ❀ و لون محب حلة السقم مكتسي
فصفرتها من صفرتي مستعارة ❀ وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنس

[1] حنا الفاخوري، " الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم"، ص 943.
[2] محمد رضوان الداية، " في الأدب الأندلوسي"، دار المكر المعاصر، لبنان، و دار الفكر، سورية، ط 1، 2000، ص 116.
[3] حنا الفاخور، "الجامع في تاريخ الأدب القديم"، ص 943.

وكان لها ثوب من الزغب أغبر ❀ على جسم مصفر من التبر أملس

فلما استتمت في القضيب شبابها ❀ وحاكت لها الأوراق أثواب سندس

مددت يدي بلطف أبغي اجتناءها ❀ لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي

ذكرت بها من لا أبوح بذكره ❀ فأذبلها في الكف حر التنفس[1]

و قد تميز الأندلسيون من ناحية الوصف بالإكثار من وصف الأزهار، حتى ألف الحميري كتابه " البديع في وصف الربيع"[2] فكان عندهم ما يشبه الميل الحضاري للأزهار لكثرتها و تنوعها في قطرهم.

قال القاضي ابن عباد في وصف الياسمين:

وياسمين حسن المنظر ❀ يفوق في المرأى و في المخبر

كأنه من فوق أغصانه ❀ دَارهمُ في مطرفٍ أخضر[3]

و إننا إذا قرأنا قطعة أخرى للشاعر الرمادي، ندرك قيمة الشعر في مجرد تخليد صور الطبيعة في أدق تفاصيلها، بل و في قيمة الشعور الذاتي في إحيائها و نقلها إلينا بروحها ... يقول الرمادي في وصف النيلوفر:

كأنما النيلوفر المجتنى ❀ وقد بدى للعين فوق البنان

مداهن الياقوت محمرة ❀ قد ضمنت شعرا من الزعفران[1]

[1] المرجع السابق، ص 943.
[2] إحسان عباس، "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف و المرابطين"،دار الشروق, عمان,ط1, 1997, ص 155.
[3] نفسه ص 158.

و تضل الأندلس بما حباها المولى به من جمال في الطبيعة ساحر، تظل ذلك الصّقعَ الجميل الذي له ألطف أثر و أجمل وقع في نفوس أبنائه فيجعل الشاعر من جمالها, ذروة لا تفوقها ذروة و يذكرها في حله و ترحاله، و يظهر ذلك جليا في أبيات مشهورة لابن خفاجة يقول فيها:

يـا أهـل أنـدلسَ لله درّكُـــم ❀ مـاء و ظـل و أنـهـار و أشجـار

ما جنّة الخلد إلا فـي ديـاركـــم ❀ ولـو تخيرت هـذا كنتُ أخـتـار

لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا ❀ فـلـيس تُدَخل بـعـد الجـنّـة النار[2]

و الطبيعة إذ تناولها شعراء الأندلس، فهم ألمّوا بكل جوانبها و بشتى أنواعها، ومنها الطبيعة الخضراء، و المياه و الجبال و الأودية و كذا الطير و الحيوان و الهوام.

و بالذهاب إلى "الطبيعة الخضراء نجدها تشمل الرياض و الحدائق و الورود و الرياحين و غراس الفواكه و سواها، كما تشمل المتنزهات ببديع تصميماتها"[3]

فمن أشعارهم في الرياض و الحدائق:

---

[1] المرجع السابق, ص 159.

[2] جميلة الخوري، "الطبيعة في الشعر الأندلسي"، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1946، ص 18، و ابن خفاجة "الديوان"، ص 133.

[3] المرجع السابق، ص 19.

يقول عبد الله ابن سماك في إحدى الرياض:

الـروض مـخـضـر الـــربـى ❀ للنـاظـرين بـأجـمـل الألـوان

و الطير تسجع في الغصون كأنها ❀ نقر القيان حَنت على العيـدان

و الـمـاء مـطـرد يـسيـل لعـــابه ❀ كـسـلاسـل مـن فضة و جمـان

بـهجات حـسن أكمـلـت فـكأنـــها ❀ حسن اليقين و بهجة الإيمـان[1]

و الشاعر هنا في وصفه للروض، لا يعطينا صورة جامدة أو مباشرة عنه و حسب، بل إنه بتشبيهاته الرائعة، يزودنا بصورة عامة عن الجو العام الذي كان سائدا في المجتمع الأندلسي، و من ذلك انتشار القيان و المغنيين و شيوع الترف المتمثل في "سلاسل الفضة و الجمان" ... و الروض بكل تلك الصفات, نطالعه في حركات جميلة نَعبُرُ من خلالها إلى تلك البقاع ... كما أن للشاعر أبي الصّلت وقفات كثيرة يناجي فيها الرياض و يغازل أغصانها و زهورها و يتفنن في استخدام المحسنات البديعية في كثير من الأحيان، قال يصف حديقة:

خضر خمائـلـها، زرق جـداولـه ❀ فالحسن مؤتـلف فـيها و مختلف

دوح و ظـل يـلذ العـيش بينهـما ❀ هذا يـرق كـما تـهوى وذا يـرف

يجري النسيم على أرجائها دنفا ❀ و مـلـؤه أرج يـشـفى بـه الدنـف

غريرة من بنات الأرض ناعية ❀ يثني معاطفها في السندس الترف

[1] محمد حسن فجة، "محطات أندلسية، دراسات في التاريخ و الأدب و الفن الأندلسي"، ص 125.

تندي أصائلها، صفرا غلائلها ❀ كأن ماء نضار فوقفا يكف[1]

و الملاحظ أن أهل الأندلس لم يكتفوا بذلك القسط من الجمال الطبيعي بل عملت يد الإنسان في التنسيق و التنظيم، و تسابق الأمراء و الخلفاء في هذا المضمار "فأقاموا الجسور و شيدوا القصور و بنوا المدن و خططوا الرياض و البساتين و غرسوا بها الأشجار و الأزهار و الرياحين و مياه الأنهار و الجداول، و أقاموا البرك الجميلة و البحيرات الواسعة ..."[2] و دليل ذلك قول الشاعر أبو بكر ابن بقي في إحدى بساتين غرناطة:

سقى الله بستان الزبير، ودام في ❀ مجاريه سيل النهر ما غث الورق
فكائن لنا من نعمة في جنابه ❀ كبزته الخضراء طابعها طلق
هو الموضع الزاهي على كل موضع ❀ أمّا ظله ضافٍ أما ماؤه دفق
أهيم به في حالة القرب و النوى ❀ و حق له مني التذكر و العشق
و من ذلك النهر الخفوق فؤاده ❀ بقلبي ما غيبت عن وجهه خفق

و من شعراء القرن الخامس هجري أبو الصلت الإشبيلي، و قد قال يصف روضا و يرى فيه جمال المرأة:

أو ما رأيت النور يشرق بالندى ❀ و الفجر ينهل من تضاب الخنس

[1] نفسه، ص 126.
[2] جميلة الخوري، "الطبيعة في الشعر الأندلسي"، ص 20، نقلا عن: النفح، المجلد الأول، الجزء 1، الطبعة الجديدة، ص 273.

و الروض يبرز في قلائد لؤلؤ ❀ و الأرض ترفل في غلائل سندس

لا تعدم الألحاظ كيف تصرفت ❀ و جنات ورد أو لواحظ نرجس[1]

و تبلغ صورة الحدائق ذروة إبداعها عند ابن خفاجة سيد شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي:

و صقليـــــة الأنوار تلوى عطفها ❀ ريح تلف فروعـها معطـار

و الـنـور عـقـد و الغصون سـوالف ❀ و الجذع زند و الخليج سوار

عـناء ألحـف عطفها الـورق الـندي ❀ و التف في جنباتها الـنـوار[2]

تمتزج لدى ابن خفاجة صور الحديقة بصور المرأة فلا ندري أهو يتحدث عن امرأة يشبهها بالحديقة، أم عن حديقة يشبهها بالمرأة.

و لا يقف ابن خفاجة عند الحديقة، بل يدخلها و يخص تفاصيلها بالذكر، من ذلك وصفه لشجرة في أحد الحدائق قائلا:

سـقـيـا لـيـوم قـد أنـخـت بسرحة ❀ ريا تلاعبها الشمال فـتـلـعـــب

سـكرى يغـنيها الحمام فـتنثنـــي ❀ طـربا و يسـقـيـها الغمام فتطرب

و الروض وجه أزهر، و الظل❀ فرع أسود، و الماء ثغر أشـنـبُ

في حـيث أطـربـنا الحـمـام عـشـيـــة ❀ فشدا يُغنّينا الحمام المطرب

[1] محمد حسن فجه، "محطات أندلسية"، ص 126.

[2] ديوان ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق عبد الله سندة، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1427هـ - 2006م، ص 130.

واهتز عطف الغصن في طرب بنا ❀ و افتر عن ثغر الهلال المغرب

فكأنه و الحسن مقترن به ❀ طوق على برد على الغمامة مذهب[1]

ومن أبدع ما وصف ابن خفاجة قوله في شجرة أراك:

و كأنها و كأن جدول مائها ❀ حسناء شد بخصرها زنار

زف الربيع بها عروس مدامة ❀ تجلى ونوار الغصون نثار

في روضة جنح الدجى ظل بها ❀ و تجسمت نورا بها الأنوار

قام الغناء بها وقد نضج الندى ❀ وجة الثرى و استيقظ النوار

و الماء من حلي الحياء مقلد ❀ جرت عليها جيوبها الأشجار[2]

و قال أحدهم يمثل الحدائق التي حمائمها نشد و فوق أغصانها:

تشدوا بعيدان الرياض حمائم ❀ شدو القيان عزفن بالأعواد

مال النسيم بقضبها فتمايلت ❀ مهتزة الأعطاف و الأجياد[3]

و في أحد الرياض قال:

روض به أشياء لي ❀ ست في سواه تؤلف

فمن الهزار ترنم ❀ و من القضيب تقطف

[1] ديوان ابن خفاجة، " ديوان ابن خفاجة " تحقيق عبد الله سندة، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1427 هـ - 2006 مـ ص 40، 41

[2] نفسه, ص 136-137.

[3] المقري, "نفح الطيب", مجلد 1, ص 15.

و من النسيم تلطف ❀ و من الغدير تعطف[1]

و قال الحائك الأميّ واصفا متحننا إلى ربوع بها الرياض ذات المناظر الرائعة:

في روضة أبدت ثغور زهورها ❀ لمّا بكا فيها الغمام تبسُّما

مد الربيع على الخمائل نوره ❀ فيها فأصبح كالخيام مخيما

تبدو الأقاحي مثل ثغر أشنب ❀ أضحى المحب به كئيبا مغرما

وعيون نرجسها كأعين غادة ❀ ترنو فترمي باللواحظ أسهما

و الطير تصدح في فروع فنونها ❀ سحرا فتوقظ بالهديل النوّما[2]

و يا لها من صور بديعة يرسمها الشاعر لتفتح الأزهار إثر هطول المطر في البيت الأول من المقطوعة، كما الربيع كالخيام يخيم... فيا لها من صور و يا لها من حركة ترتسم أمام ناظر المستمع ... و الشاعر نفسه يهفو إلى قصور ذات بهجة ... تزيد بهجتها الرياض و الأدواح و الأطيار و الأزهار:

و رياض تختال منها غصون ❀ في برود من زهرها عقود

فأكن الأدواح فيها غوان ❀ تتبارى زهوا بحسن القدود

و كأن الأطيار فيها قيان ❀ تتغنى في كل عود بعود

و كأن الأزهار في حومة الرو ❀ ض سيوف تسل تحت بنود[1]

[1] نفسه, ص 15.
[2] نفسه, ص 18.

كما يصبو الشاعر إلى بطاح و أدواح، تروح النفوس و الأرواح فتراه يشدو:

سقيا لـهـا مـن بـطـاح خـز ❀ ودوح زهر بـها مـطلّ

إذ لا ترى غير وجه شمس ❀ أطـلّ فـيـه عـزار ظـلٌ[2]

و من أعمال غرناطة وادى آش، و يقال له وادي الآشات، وهي مدينة جميلة قد أحدقت بها البساتين و الأزهار، و فيها قال أبو الحسن بن نزار:

وادي الأشات يهيج وجـدي كـلـما ❀ أذكـرت ما قضت بك النعماء

لله ظـلـك و الـهـجـيـر مسلـــــط ❀ قـد بـردت لـفـحـاتـه الأنـداء

و الشمس ترغب أن تفوز بلحظة ❀ منه فتطرف طرفها الأفيـاء

و النهر يـبـسـم بالحـبـاب كـأنــه ❀ سلخ نـضـتـه حـيـة رقـشـاء

فلـذاك تـحـذره الغـصون فـميـلـها ❀ أبـدا عـلـى جـنـبـاتـه إيـماء[3]

و كان الشعراء إذا ما جلسوا في مجلس أنس أو طرب لم ينسوا ما كانت تهيئه لهم طبيعتهم الجذابة من جو جميل مفرح تزقزق فيه الأطيار و تسيل فيه المياه و تطيب فيه الأثمار:

و مـل بـنـا نـحـو عين الدمع نشربهـا ❀ حيث السرور بكأس الأنس يسقينا

حـيـث االهنـا و فـنـون اللـهو رائـعـة ❀ و الطير من طرب فيها تناجيـــنا

[1] المصدر السابق, ص 19.
[2] نفسه, ص 19.
[3] المقري, "نفح الطيب", المجلد 1, ص 149.

و جدول الماء يحكي في أجنته ❀ صورا ما جردت في يوم صفينا

و أعين الزهر في الأغصان جاحظة ❀ كأنها أعين الغزلان تغرينا[1]

كما أن الأندلسيين كانوا إذا رثوا, وصفوا الروض منتنيا على المرثي كما تجري جداول الماء على الخدود حزنا عليه. قال ابن خفاجة يرثي الوزير أبا أحمد عبد الله ابن ربيعة:

في كل ناد روض ثناء ❀ وبكل خد فيك جندل ماء

و لكل شخص هزة الغصن الندى ❀ غبّ البكاء و رنة المكّاء[2]

إن ما نلاحظه من خلال تلك الأشعار أن وصف الطبيعة و توثيق مظاهرها جاء مرافقا للشاعر في أغلب أغراضه، في مدحه و رثائه و في مجالس أنسه و في نسيبه و تغزله و كذا في تحننه ... هذا الاتساع في النظرة إلى الطبيعة جعلنا نراها متحركة تحرك المشاعر، عميقة عمق الإحساس، حية بحياة صاحبها، وهو الذي عاصر كل تفاصيلها فكان لنا لا بمثابة الموثق فحسب، بل كان صاحب "نقل مباشر" بحسب أسلوب وسائل الإعلام الدارجة اليوم.

[1] جميلة الخوري, "الطبيعة في الشعر الأندلسي", ص 24, نقلا عن "الإحاطة في أخبار غرناطة" القسم1, ص 20.
[2] ابن خفاجة, "ديوان ابن خفاجة", ص 18.

ومن الدلائل العجيبة على مدى حياة و حيوية تلك المشاهد الطبيعية التي رصدها لنا الشاعر الأندلسي، قول محمد ابن يحيى النحوي، و المعروف بالقلفاط، و قد كان شاعرا مشهورا، ذكر له أبو عمار بن مسلمة شعرا في الرياض، ومنه:

مزن تغنيه الصبا فإذا هما ❀ لبت حياة روضة غناء

و الأرض من ذاك الحيا موشية ❀ و الروض من تلك السماء سماء

ما إن وشت كفا صناع ما وشى ❀ ذاك الغناء بها و ذاك الماء

زهر لها مقل جواحظ تارة ❀ ترنو و تارات لها إغماض[1]

إننا من خلال هاته الأبيات و خاصة البيت الأخير نطالع حركة رائعة للزهر, لا بل ترتسم في خيالنا, لكأننا نعايش تلك الطبيعة اليوم.

و مثل هذا المقطع، قول مازن بن عمرو:

و روضة تد مار يروقك حسنها ❀ عليها رباط الوشي و الحلل الصفر

ترى زهرات النور فيها كأنها ❀ عيون أجالتها الخرّد الخفر[2]

و قال إسماعيل ابن إسحاق المعروف بالمنادي, في وصف غصون الأشجار:

يعانق بعض بعضهن تأودا ❀ تعانق معشوقين كانا على هجر

و يسقين دمعا من عيون كأنها ❀ عيون مهًا يرعدن من شدة الذّعر[1]

---

[1] الضبّي, "بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس", ج 1, تحقيق إبراهيم الأبياري, دار الكتاب المصري, القاهرة و دار الكتاب اللبناني, بيروت, ط1, 1988, ص 186-187.

[2] ابن الكتاني, "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس", طبعة إلكترونية, مكتبة المصطفى الالكترونية. ص 11.

و قال ابن زيدون في فتنة الطبيعة:

ورد تألق في ضاحي منابته ❀ فازداد منه الضحى في العين إشراقا

سرى ينافحه نيلوفر عبق ❀ و سنان فيه من الصبح أحداقها[2]

وقال ابن خفاجة في حمامة:

أ ذات الطوق في التغريد أشهى ❀ إلى أذني من الوتر الفصيح

إذا هتفت على غصن رفيع ❀ تنوح أو على غصن مريح

تضم عليه منقارا و نحرا ❀ كما خر الفجيع على الضريح[3]

و قال أيضا:

مسمعة من غير أوتار ❀ إلا ارتجالا فوق أشجار

عاشقة النوار ما أقبلت ❀ إلا بها آثار نوار[4]

الملاحظ في تلك الأشعار التي لا يمكن بأي حال من الأحوال حصرها، أنها تجيئ غالبا متشابهة و لكن فقط في خطوطها الكبرى, و يبقى معه كل شعر يتصف بصفات مميزة تختلف باختلاف قائلها، "فمنهم من أحب الطبيعة في الرياض و البساتين و لم ترقه سوى الصفرة دالة على ذبول وجه الولهان, و منهم من لم ير

[1] نفسه, ص 13.
[2] جميلة الخوري, "الطبيعة في الشعر الأندلسي", ص 23.
[3] الكتاني, "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس", ص 18.
[4] المرجع السابق, ص 19.

ومن بين أفضل ما قيل في الرثاء, مُصوّرا زهو الحضارة الأندلسية و تألقها, نونية أبي البقاء الرندي, "مرثية الزمان و قصّة المكان"[2]

و بها ذكرٌ لمدن عدّة منها مدينة روندة, و ممّا قاله الشاعر فيها:

دهى الجزيـرة أمـرٌ لا عـزاء لـــه ❀ هـوى له أحـدٌ و انهدّ ثـهـلانُ

أصابها العين في الإسلام فامتحنت ❀ حتى خلـت منه أقطارٌ و بُلدانُ

فـاسـأل بـلـنسيـة ما شأن مُرسيـــةٍ ❀ و أيـــن شاطبة أم أيـن جيّـانُ

و أيـن قرطبـة دار الـعلـوم فكـم ❀ من عالمٍ قد سما فيهاغ له شـانُ

و أيـن حـمص و مـا تحويه من نـزه ❀ و نهرها العذبُ فيّاضٌ و ملآنُ

قواعـدَ كـنّ أركـــان البـلاد فـما ❀ عسى البقاء إذا لم تبق أركـانُ

تـبـكي الحـنيـقيـة البيضاء من أسف ❀ كما بكى لفراق الإلفِ هيمـــانُ

على ديـار مـن الإسـلام خـالـيـــةٍ ❀ قد أقفرت و لها بالكفر عُمرانُ[3]

في القصيدة توثيق مباشر لأسماء مدن أندلسية أصابها البَوار, و استرجاع ذو شجن لأيام عزّها البائد!

و يقترب من الرّنديّ في تفاصيله, أخذ الشعراء "المجهولين" في قصيدة تعبّر عن انفعال صادق, فالها الشاعر حين سقطت روندة, و كيف أنّها هُدّت مبانيها

[1] نفسه, ص 10.
[2] "مجلة العربي", وزارة الثقافة, الكويت, العدد 635, شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011, ص 36.
[3] عزوز زرقان, "شعر الاستصراخ في الأندلس", دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, 2008, ص 134, 135, نقلا عن "النفح ج 4" ص 487.

بعدما كانت عليه من حسن و نضارة و بهاء, فنجدهُ في صراخه يرسم لنا صورةً مميّزة لحال رندة مسلمة موحّدة, و لحالها و التماثيل فيها تُعبدُ و النواقيس أصواتُها تعلوا, فيقول:

أحقًّا خبى من جوّ رندة نورُها ❀ و قد كُسِفت بعد الشموس بدورُها
و بالعزاء المؤمنون لفاقةٍ ❀ على الرّغم أغنى من لديها فقيرُها
لأندلس ارتجّت لها و تضعضعت ❀ و حقّ لديها محوُها و دثورُها
منازلها مصدورةٌ و بطاحُها ❀ مدائنُها موثورةٌ و ثغورُها
تمائمها مفجوعةٌ و نُجودُها ❀ و أحجارُها مصدوعةٌ و صخورُها
و قد لبست ثوب الحداد و مزّقت ❀ ملابسَ حُسنٍ كان يزهو حبورُها
فأحياؤها تُبدي الأسى و جمادُها ❀ يكادُ لفرط الحزن يبدو ضميرُها[1]

و قال ابن اللبانة في رثاء دولة بني عبّاد:

تبكي السماء بمُزنٍ رائح غادِ ❀ على البهاليل من أبناء عبّادِ
على الجبال التي هُدّت قواعدها ❀ و كانت الأرض منهم ذات أوتادِ
نسيتُ إلاّ غداة النّهر كونهمُ ❀ في المنشآت كأموات بألحادِ[2]

[1] المرجع السابق, ص 136- 137.
[2] سامية جبّاري, "الأدب و الأخلاق في الأندلس في عصر الطوائف و المرابطين", ص 120.

ومن بين أفضل ما قيل في الرثاء, مُصوّرا زهو الحضارة الأندلسية و تألقها, نونية أبي البقاء الرندي, "مرثية الزمان و قصّة المكان"[2]

و بها ذكرٌ لمدن عدّة منها مدينة روندة, و ممّا قاله الشاعر فيها:

دهى الجزيـرة أمـرٌ لا عـزاء لـــه ❀ هـوى له أحـدٌ و انهدّ ثـهـلانُ

أصابها العين في الإسلام فامتحنت ❀ حتى خلـت منه أقطارٌ و بُلدانُ

فـاسـأل بـلـنسيـة ما شأن مُرسيـــةٍ ❀ و أيـــن شاطبة أم أيـن جيّـانُ

و أيـن قـرطـبـة دار الـعـلـوم فـكـم ❀ من عالمٍ قد سما فيهاغ له شـانُ

و أيـن حـمص و مـا تحويه من نـزه ❀ و نـهرها العذبُ فيّاضٌ و ملآنُ

قواعـدَ كـنّ أركـــان الـبـلاد فـما ❀ عسى البقاء إذا لم تبق أركـانُ

تـبـكي الحـنيـقيـة البيضاء من أسف ❀ كما بكى لفراق الإلف هيمـــانُ

عـلى ديـار مـن الإسـلام خـالـيـــةٍ ❀ قد أقفرت و لها بالكفر عُـمرانُ[3]

في القصيدة توثيق مباشر لأسماء مدن أندلسية أصابها البَوار, و استرجاع ذو شجن لأيام عزّها البائد!

و يقترب من الرّنديّ في تفاصيله, أخد الشعراء "المجهولين" في قصيدة تعبّر عن انفعال صادق, فالها الشاعر حين سقطت روندة, و كيف أنّها هُدّت مبانيها

[1] نفسه, ص 10.
[2] "مجلة العربي", وزارة الثقافة, الكويت, العدد 635, شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011, ص 36.
[3] عزوز زرقان, "شعر الاستصراخ في الأندلس", دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, 2008, ص 134, 135, نقلا عن "النفح ج 4" ص 487.

بعدما كانت عليه من حسن و نضارة و بهاء, فنجدهُ في صراخه يرسم لنا صورةً مميّزة لحال رندة مسلمة موحّدة, و لحالها و التماثيل فيها تُعبدُ و النواقيس أصواتُها تعلوا, فيقول:

أحقًا خبى من جوّ رندة نورُها ❀ و قد كُسِفت بعد الشموس بدورُها
و بالعزاء المؤمنون لفاقةٍ ❀ على الرّغم أغنى من لديها فقيرُها
لأندلس ارتجّت لها و تضعضعت ❀ و حقّ لديها محوُها و دثورُها
منازلها مصدورةٌ و بطاحُها ❀ مدائنُها موثورةٌ و ثغورُها
تمائمها مفجوعةٌ و نُجودُها ❀ و أحجارُها مصدوعةٌ و صخورُها
و قد لبست ثوب الحداد و مزّقت ❀ ملابسَ حُسنٍ كان يزهو حبورُها
فأحياؤها تُبدي الأسى و جمادُها ❀ يكادُ لفرط الحزن يبدو ضميرُها[1]

و قال ابن اللبانة في رثاء دولة بني عبّاد:

تبكي السماء بمُزنٍ رائح غادِ ❀ على البهاليل من أبناء عبّادِ
على الجبال التي هُدّت قواعدها ❀ و كانت الأرض منهم ذات أوتادِ
نسيتُ إلا غداة النّهر كونهمُ ❀ في المنشآت كأموات بألحادِ[2]

[1] المرجع السابق, ص 136- 137.
[2] سامية جبّاري, "الأدب و الأخلاق في الأندلس في عصر الطوائف و المرابطين", ص 120.

و قال ابن زيدون في فتنة الطبيعة:

ورد تألق في ضاحي منابته ❀ فازداد منه الضحى في العين إشراقا

سرى ينافحه نيلوفر عبق ❀ و سنان فيه من الصبح أحداقها[2]

وقال ابن خفاجة في حمامة:

أ ذات الطوق في التغريد أشهى ❀ إلى أذني من الوتر الفصيح

إذا هتفت على غصن رفيع ❀ تنوح أو على غصن مريح

تضم عليه منقارا و نحرا ❀ كما خر الفجيع على الضريح[3]

و قال أيضا:

مسمعة من غير أوتار ❀ إلا ارتجالا فوق أشجار

عاشقة النوار ما أقبلت ❀ إلا بها آثار نوار[4]

الملاحظ في تلك الأشعار التي لا يمكن بأي حال من الأحوال حصرها، أنها تجيئ غالبا متشابهة و لكن فقط في خطوطها الكبرى, و يبقى معه كل شعر يتصف بصفات مميزة تختلف باختلاف قائلها، "فمنهم من أحب الطبيعة في الرياض و البساتين و لم ترقه سوى الصفرة دالة على ذبول وجه الولهان, و منهم من لم ير

[1] نفسه, ص 13.
[2] جميلة الخوري, "الطبيعة في الشعر الأندلسي", ص 23.
[3] الكتاني, "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس", ص 18.
[4] المرجع السابق, ص 19.

الجمال في الطبيعة إلا و قد اخضرت روابيها ... "[1] إلا أن الشاهد منها، أو ما يهمنا في هذا العرض، أن الشاعر نجح - إن أمكن القول – في توثيق مظاهر الطبيعة توثيقا حيا فيه حركة و تموجات ألوان و بيان لبيئة ساحرة لم تدع للشاعر مجالا سوى الهُيام بها و نقلها للأجيال و تخليدها عبر العصور ... و إن ظلت طبيعة الأندلس إلى اليوم ماثلة بسحرها, إلا أن الشعر نقلها لنا بإحساس رائع، و وثق بالتالي الحسّ المرهف و الشعور الجميل بالأشياء المحيطة, التي تمتعت به نفسية الإنسان المسلم و التي قد نفتقدها كثيرا في زماننا اليوم!

[1] جميلة الخوري, "الطبيعة في الشعر الأندلسيّ", ص 30.

## المبحث الثاني: توثيق المظاهر العمرانية و أساطيل البحرية

بعد أن تم الحديث عن العمران في فصل سابق, و ما وصلت إليه الأندلس من تطور و ازدهار في هذا المجال و غيره من المجالات, فالأفضل الولوج مباشرة في عرضٍ لمظاهر ذلك التطور في الشعر, و انعكاس كلّ ذلك الازدهار على نفسية الشاعر الذي نقل على إثره مشاهداته إلينا في قالبٍ شعريّ جميل و رائع نحاول استشفافه من خلال هذا المبحث.

و الملاحظ أنّ هذا النوع من التوثيق مبثوث في العديد من الأغراض الشعرية, إذ نجده في الوصف و في الحنين و في الرثاء و كذا في المدح...و هذا ما استدلُ عليه الأبيات و المقاطع التي سيأتي ذكرها تباعا في هذا السياق.

**في باب الوصف:**

نجد شعراء الأندلس لم يغفلوا عن وصف مظاهر التحضر بمختلق أنواعه, فوصفوا القصور و البرك و التماثيل و آلات الحرب و أساطيل البحرية, و غالبا ما كان وصف القصور و الدور يُتخذ وسيلة إلى المدح و الثناء على أصحابها. قال الشاعر ابن جزيّ الكلبيّ الغرناطي, في معرض للأمير يوسف المدعو بالأحمر ملك الأندلس:

يُشيدونَ أبياتهم بالنّضار ❀ إذا فرشوا باللُّجين العِراصا

أمولايَ دونكَ درّاً نضيدا ❀ قد احتال فكري عليه و غاصا[1]

"و منهم من جعل من وصف القصور وسيلة للوعظ و الإرشاد و كان من هذا الباب شعر قضاة الأندلس..."[2] مثال ذلك قول القاضي منذر بن سعيد البلوطي, مُخاطبا باني الزهراء, وهو يعظه و في نفس الوقت لا يُخفي زهوه و إعجابه بالقصر الرائع:

يا بانيَ الزهراء مستغرقا ❀ أوقاتَه فيها أما تمهل

لله ما أحسن رونقها ❀ لو لم تكن زهرتها تذبُل[3]

و قال ناهض بن إدريس, في قصر السيّد أبي يحيى:

ألا حبّذا القصرُ الذي ارتفعت به ❀ على الماء من تحت الحجارة أقواسُ

هو المصنع الأعلى الذي أنف الثرى ❀ و رفعهُ عن لثمه المجد و الباسُ

فأركَب عزّ النهر مجدا و رفعةً ❀ و في موضع الأقدام لا يوجدُ الرّاسُ

فلازالَ معمور الجناب و بابُه ❀ يغصّ و حلّت أفقه الدّهرَ أعراسُ[4]

و من وصف القصور قول شاعرهم:

---

[1] أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي, "نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان", تحقيق محمد رضوان الداية, عالم الكتب, بيروت, د.ط, د.ت, ص 121.

[2] أشجع رشدي عبد الجبار دريدي, "شعر قضاة الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف: دراسة نقدية تحليلية", رسالة ماجستير, جامعة النجاح, قسم اللغة العربية و آدابها, نابلس, فلسطين, 2006, د.ط, ص63.

[3] المقري, "نفح الطيب" مجلد 1, ص 576.

[4] نفسه, ص 470.

قصرٌ بمدرجة النسيم تحدّثت ❀ فيه الرّياض بسرّها المستور

خفض الخورنق و السّديرُ سموّه ❀ و ثنى قصور الروم ذاتَ قصور

غنّى الربيع به محاسن وصفه ❀ فافترّ عن نوْرٍ يروقُ و نور

فالدرّ يسحبُ حلّةً من سندسٍ ❀ تزهى بلؤلؤ طلّبا المنثور

و النخل كالغيد الحسان تقرّطت ❀ سبائك المنظوم و المنثور

و الرمل في حبك النسيم كأنّما ❀ أبدى غصون سوالف المذكور

و البحر يرعدُ متنه فكأنه ❀ درعٌ تشن بمعطفيّ مقرور

و كأننا و القصر يجمع شملنا ❀ في الأفق بين كواكب و بدور[1]

كما لم يكتف الشعراء بوصف القصور, بل وصفوا ما بها من التماثيل و برك المياه و أواني الأزهار, قال بعضهم ففي دائرتين من وردٍ و ياسمين:

يا حسنها دائرةً ❀ من ياسمين كالحليّ

فالورد قد قابلها ❀ في حلّة من خجل

كعاشق و حبِّه ❀ تغامزا بالمقل

فاحمرّ ذا من خجلٍ ❀ و اصفرّ ذا من وجل[2]

و قال ابن عمّار في وصف قصر الدّمشق بقرطبة:

[1] أحمد ضيف, "بلاغة العرب في الأندلس", ص 52.
[2] نفسه, ص 52.

كـلّ قـصـرٍ بـعـد الـدّمـشـق يُـذمّ ❀ فيه طاب الجنيُ و لذّ المشمّ

مـنـظـرٌ رائـقٌ ومـــاءٌ نـمـيـر ❀ و ثرى عاطرٌ، و قصرٌ أشمّ

بـتُّ فيه و الليل و الفجرُ عـنـدي ❀ عـنـبـرٌ أشهـبٌ و مـسـكٌ أحمّ[1]

و من الوصف قول ابن حمديس الصقليّ يصف داراً بناها المعتمد على الله:

و يـا حـبّـذا دارٌ قـضـى الله أنّـها ❀ يُـجـدّدُ فـيـها كـلّ عـزّ و لا يـبـلـى

و مـا هي إلا خـطـة الملك الذي ❀ يـخـطّ إلـيـه كـلّ ذي أمـل رجـلا

إذا فـتـحـت أبـوابـها خـلـت أنّـها ❀ تـقول بـتـرحـيـبٍ لـداخـلها أهـــلا

و قد نقلت صنّاعها من صفاته ❀ إليهـــا أفـانـين فـأحـسـنـت الـنـقـلا

فمن صدره رحبا و من نوره سنا ❀ و من صيته فرعا ومن حلمه أصلا

نـسـيـتُ إيـوان كـسـرى لأنّـنـي ❀ أراه له مولى من الحسن لا مثـلا[2]

هذه الأبيات و إن كانت مدحا لصاحبها على حسن خصاله و جميل صنائعه, فإنها عامرة بملامح تنمّ عن بناء رائع بلغ من الحسن ما بلغ, كما تنقل إلينا رفعة ذوق و إحساسا بالجمال كان يستمده المسلم من الإنسان نفسه.

و قال في قصيدة أخرى يصفف دارا بناها المنصور:

أعـيت مصانعه على الفرس الألى ❀ رفـعـوا البناء و أحكموا التدبيـرا

[1] المقري, "نفح الطيب" مجلد 1, ص 470.
[2] نفسه, ص 491.

و مضت على الروم الدهور و ❀ ما بنوا لملوكهم شبها له و نظيرا

أذكرتنا الفردوس حين أريتنا ❀ غرفا رفعتَ بناءها و قصورا[1]

و بعد مقاطعَ من المدح يُضيف الشاعرُ قائلا:

أبصرته فرأيت أبدع منظر ❀ ثمّ انثنيتُ بناظري محسورا

و ظننتُ أنّي حالمٌ في جنّة ❀ لمّا رأيت الملك فيه كبيرا

و إذا الولائد فتّحت أبوابَه ❀ جعلت تُرحّبُ بالعفاة صريرا

عضّت على حلقاتهم ضراغمُر ❀ فغرت بها أفواهها تكشيرا

تجري الخواطرُ مطلقات أعنّة ❀ فيه فتكبوا عن مداهُ قصورا

بمرخّم السّاحات تحسب أنّه ❀ فرش المها و توشّح الكافورا

و محصّبٌ بالدّر تحسبُ تُربه ❀ مسكا تضوّعَ نشره و عبيرا[2]

ثم ذكر الشاعر بركة في القصر, عليها أشجارٌ من ذهب و فضّة ترمي فروعها المياه, و تفنّن فذكر أسودا على حافاتها قاذفة بالمياه أيضا:

و ضراغم سكنت عرين رياسة ❀ تركت خرير الماء فيه زئيرا

أسدٌ كأن سكونها متحرّكٌ في ❀ النفس لو وجدت هناك مثيرا

و تخالها و الشمسُ تجلو لونها ❀ نارا و ألسُنها اللواحس نورا

[1] المرجع السابق, ص 492.
[2] نفسه, ص 492.

و بديعة الثمرات تعبر نحوها ❀ عينايَ بخر عجائبٍ مسجورا

شجريّة ذهبيّة نزعت إلى ❀ سحرٍ يؤثر في النهى تأثيرا

و تريك في الصهريج موقع قطرها ❀ فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

و مصفّح الأبواب نظّروا ❀ بالنّقش فوق شكوله تنظيرا[1]

و قال أبو الصّلت أميّة الأندلسيّ يذكر بناء بناه عليّ بن تميم بن المعزّ العبيدي:

لله مجلسك المنيف قبابه ❀ بموطّد فوق السماء مؤسّس

تتقابل الأنوارُ من جنباته ❀ فالذيلُ فيه كالنّهار المشمس

عطفت خناياه دُوَين سماته ❀ عطف الأهلة و الحواجب و القسي

و استشرفت عمد الرخام و ظوهرت ❀ بأجلّ من زهر الربيع و أنفس

فهواءه من كلّ قدّ أهيف ❀ و قراره من كلّ خدّ أملس

فلكٌ تحيّر فيه كلّ منجّم ❀ و أقرّ بالتقصير كلّ مهندس[2]

تبقى هذه الأبيات السّالفة الذكر مجرّد نماذجَ ندلّلُ بها على الوظيفة التي يقوم بها الشاعر, و التي قام بها الشاعر الأندلسيّ على وجه الخصوص, إذ يتقل إلينا مشاهد الحضارة عامرةً بالحركة, حافلةً بالصّور, فكأنّنا نرى الأنوار و هي تتقابلُ في جنبات القصر, و نتصور أعمدة الرخام في شكلها الأبهى من الزّهر...

[1] المقري, "نفح الطيب" المجلد 1, ص 494.
[2] نفسه, ص 497.

إنّها الحركة يضفيها الشاعر على وثيقته... إنّها الحياة تدبُّ في معالم التاريخ, منبئةً عن حضارة عظيمة شيّدها المسلمون يوما في الأندلس.

**في رثاء المدن:**

ذكرُ العمائر و المعالم الحضارية لم يقتصر على الوصف المباشر كما سبق أن رأينا, بل إنّه امتدّ إلى ما بعد سقوط المدن... إلى ما بعد خراب العمائر, ليُذكّر بعزّ فنى و مرابع كانت عامره, و شواهدَ ربّما درست بالنسبة لكتب التاريخ, لكنّها ظلّت أبدا ماثلة في ذاكرة الشاعر الأندلسيّ الذي عاش الأحداث بحلوها و مرّها, و نقل مشاهدات ملؤها العاطفة, و إن غلبت عليها نبرة الحزن.

و في باب الرثاء, تعدّ فترة ملوك الطوائف من أحلك الفترات و "أقساها على الأندلس من الناحية السياسية و العسكريّة, فقد انفرط عقد الأندلس الموحّدة التي ضمّتها الدولة الأموية, و صارت أندلسات كثيرة, في كلّ بقعة دويلةٌ لا تقوى على التماسك... و نشأ الاقتتالُ فيما بينها"[1]

و قد نظم عدد من شعراء هذه المدّة قصائد و مقطوعات تذكر ما أصاب دول الطوائف من الإزالة, أو الانهيار, أو الاضطرار إلى التسليم للسلطة الجديدة... في تصويرٍ تاريخيّ-أدبيّ لما أصاب تلك الدّول من الزوال و الانهيار...فوصفوا

[1] محمد رضوان الداية, "في الأدب الأندلسي", ص 145.

التغيّر الجذري الذي طرأ على تلك الدول و المدن[1] و عرّجوا في أشعارهم على مظاهر عزّها البائد, فوثّقوا ما كان من زهوها و عمارها, قبل خرابها, و بكوا تلك الأيام الخوالي. قال غلام الفصيح الأندلسيّ:

يا قصرَ قرطبة هيّجت لي شجنا ❀ لمّا تأبّدت بعد الكنّس الرئم

معاهد عمّرت فيها خلافتنا ❀ أكفّنا فوقها بالجود كالدّيم[2]

و بالموازاة مع هذا النوع من الشعر, نجد شعر الاستصراخ و استنهاض الهمم, الذي سجّلوا فيه الأحداث التاريخية التي جرت بين أهل الأندلس و بين الدول المعادية, "و وصفوا النكبات التي أصابت الأندلسيين بالويلات, و استنهضوا الهمم و توسّلوا إلى ذلك بالقيم"[3]. فلقد تتبع الشعر الأندلسي هذه المحن و النكبات مسجّلا مراحلها, مُخلّدا شعور الأندلسيين فيها, "معبّرا بالدمع و الدّم عن تلك الإحساسات الصادقة العميقة, التي قلّ نظيرُها في الأدب العربيّ ككُل"[4].

و سأحاول الوقوف على ملامح التطور العمرانيّ التي وثّقها الشاعر الأندلسيّ في شعره من دون تقسيمٍ تاريخيّ محدّد لاختلاط الأداث و تقاربها,

[1] نفسه, ص 151.
[2] عبد الحكيم الوائلي, "موسوعة شعراء الأندلس", دار أسامة, عمان, الأردن, ط1, 2001, ص 258.
[3] محمد رضوان الداية, "في الأدب الأندلسيّ", ص 160.
[4] شاهر عوض الكفاوس, "الشعر العربي في رثاء الدّول و الأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس", ص 190.

"فربّما سقطت إمارة او مملكة قبل مدينة, أو سقطتا معا, أو استُرجعت مدينة بعد سقوطها ثمّ أُخذت مرّة أخرى"[1].

و من النماذج, ما كره المقري في نفح الطيب, و هي أبيات نصّها:

أين الملوك ذووا الـريا ❀ سة و الـسياسة و الصرامة

و بـنو أميّة حين جمّـ ❀ ـع عـصرهم لـهم فـئـامَـه

و تمكّـنوا ممّـن يحـاو ❀ لُ نـقض ما شـاؤوا انبرامه

و تعشّقوا لما بدى لهم ❀ محـيّـا الأرض شـامـــه[2]

يصور هذا الشعر مدى ما بلغ إليه بنو أميّة من العزّ و الرّياسة, و كيف أنّهم حاكوا حضارة المشرق, و الدليل على ذلك قوله "شامه".

و يواصل قائلا:

بل أين أربـــاب العـلـو ❀ م ألـوا التّصدر و الإمامه

و ذووا الـوزارة و الحجا ❀ بة و الـكتـابـة و الـعـلامة

كـأئـمـة سكنـــوا بـأنـ ❀ دلس فلم يشكوا سآمه

هـــي جنّـة الدنيا التـي ❀ قد أذكرت دار المُقامه

لا سيّـما غـرنـاطـة الـ ❀ ـغرّاءُ رائـقـة الـوسـامـه

و هي التي دُعيت دمشـــ ❀ ـقٌ و حسبُها هذا فخامه[1]

[1] نفسه, ص 191.
[2] المقري, "نفح الطيب", مجلد1, ص 8.

ومن بين أفضل ما قيل في الرثاء, مُصوّرا زهو الحضارة الأندلسية و تألقها, نونية أبي البقاء الرندي, "مرثية الزمان و قصّة المكان"[2]

و بها ذكرٌ لمدن عدّة منها مدينة روندة, و ممّا قاله الشاعر فيها:

دهى الجزيـرة أمـرٌ لا عـزاء لـــه ❀ هـوى له أحـدٌ و انهدّ ثـهـلانُ

أصابها العين في الإسلام فامتحنت ❀ حتى خلت منه أقطارٌ و بُلدانُ

فاسأل بلـنسيـة ما شأن مُرسيـــةٍ ❀ و أيـــن شاطبة أم أيـن جيّانُ

و أيـن قرطبـة دار العـلوم فكـم ❀ من عالمٍ قد سما فيهاغ له شانُ

و أين حمص و ما تحويه من نـزه ❀ و نهرها العذبُ فيّاضٌ و ملآنُ

قواعـدَ كـنّ أركـــان البلاد فـما ❀ عسى البقاء إذا لم تبق أركـانُ

تبكي الحنيقية البيضاء من أسف ❀ كما بكى لفراق الإلفِ هيمـــانُ

على ديار مـن الإسلام خـاليـــةٍ ❀ قد أقفرت و لها بالكفر عُمرانُ[3]

في القصيدة توثيق مباشر لأسماء مدن أندلسية أصابها البَوار, و استرجاع ذو شجن لأيام عزّها البائد!

و يقترب من الرّنديّ في تفاصيله, أخد الشعراء "المجهولين" في قصيدة تعبّر عن انفعال صادق, فالها الشاعر حين سقطت روندة, و كيف أنّها هُدّت مبانيها

[1] نفسه, ص 10.
[2] "مجلة العربي", وزارة الثقافة, الكويت, العدد 635, شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011, ص 36.
[3] عزوز زرقان, "شعر الاستصراخ في الأندلس", دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, 2008, ص 134, 135, نقلا عن "النفح ج 4" ص 487.

بعدما كانت عليه من حسن و نضارة و بهاء, فنجدهُ في صراخه يرسم لنا صورةً مميّزة لحال رندة مسلمة موحّدة, و لحالها و التماثيل فيها تُعبدُ و النواقيس أصواتُها تعلوا, فيقول:

أحقًا خبى من جوّ رندة نورُها ❀ و قد كُسِفت بعد الشموس بدورُها
و بالعزاء المؤمنون لفاقةٍ ❀ على الرّغم أغنى من لديها فقيرُها
لأندلس ارتجّت لها و تضعضعت ❀ و حقّ لديها محوُها و دثورُها
منازلها مصدورةٌ و بطاحُها ❀ مدائنُها موثورةٌ و ثغورُها
تمائمها مفجوعةٌ و نُجودُها ❀ و أحجارُها مصدوعةٌ و صخورُها
و قد لبست ثوب الحداد و مزّقت ❀ ملابسَ حُسنٍ كان يزهو حبورُها
فأحياؤها تُبدي الأسى و جمادُها ❀ يكادُ لفرط الحزن يبدو ضميرُها[1]

و قال ابن اللبانة في رثاء دولة بني عبّاد:

تبكي السماء بمُزنٍ رائح غادِ ❀ على البهاليل من أبناء عبّادِ
على الجبال التي هُدّت قواعدها ❀ و كانت الأرض منهم ذات أوتادِ
نسيتُ إلاّ غداة النّهر كونهمُ ❀ في المنشآت كأموات بألحادِ[2]

[1] المرجع السابق, ص 136- 137.
[2] سامية جبّاري, "الأدب و الأخلاق في الأندلس في عصر الطوائف و المرابطين", ص 120.

الشاهد في قول الشاعر "و كانت الأرض منهم ذات أوتاد", إذ فيه دلالة بليغة على مدى ما وصل إليه ملوك الأندلس من التطور في العمران و التفنن في البناء.

و في رثاء قرطبة المنكوبة, يقول ابن شهيد الأندلسي:

عهدي بها و الشمل فيها جامعٌ ❀ من أهلها و العيش فيها أخضرُ

و رياح زهرتها تلوحُ عليهمُ ❀ بروائحَ يفترّ عنها العنبرُ

و الدارُ قد ضرب الكمال رِواقهُ ❀ فيها و باعُ النّقص فيها يقصُرُ

و القومُ قد امِنوا تغيّر حُسنها ❀ فتعمّموا بجمالها و تأزّروا

يا طيبهم بقصورها و خدورها ❀ و بدورها و قصورها تتخدّرُ

و القصرُ قصرُ بني أميّة وافرٌ ❀ من كلّ أمرٍ و الخلافة أوفرُ

و الزاهريّة بالمراكبِ تزهرُ ❀ و العامريّة بالكواكب تعمُرُ

و الجامع الأعلى يغصّ بكلّ من ❀ يتلوا و يسمع ما يشاء وينظرُ

و مسالك الأسواق تشهدُ أنها ❀ لا يستقلّ بسالكيها المحشَرُ[1]

فالشاعر يرجع بذاكرته إلى الماضي القريب حيث كان شمل الأحباب بقرطبة مجتمعٌ, و عيشهم بها رغيدا, يفتخرون بها على سائر البلاد, "فهي درّة

[1] شاهر عوض الكفاوس, "الشعر العربي في رثاء الدول و الأمصار حتى سقوط الأندلس", ص 195.

جبين الحضارة, يزهوا بعمائرها و منشآتها العامة و الخاصّة, و بشوارعها الواسعة المُضاءة بالقناديل, و بحدائقها التي تتمايل بزهرها الشذيّ."[1]

و ها هو ذا ابن شهيد يُبدي تأسّفه على أيامه الخوالي بقرطبة, حين كان الأمر مجتمعا على أمير واحد حازم, ثمّ يمتدّ أسفه ليشمل أصنافا من الناس, كالجند و الحماة و العلماء و الأدباء و الحكماء, يقول:

أيـــام كـان الأمـرُ ففـيهـا واخـدا ❀ لأمـيرها و أمير من يتأمّرُ

أيّـام كـان كـفّ كـلّ سـلامـــــة ❀ تسموا إليها بالسلام و تبـدرُ

حزني عـلـى سـرواتها و رواتـهـا ❀ و ثـقاتـها و حمـاتها يـتـكـرّرُ

نفسـي عـلـى آلائـهـا و صـفائـهـا ❀ و بـهـائها و سـنـائـهـا تتحسّرُ

كبدي على علمائها، حُكـمـائـهـا ❀ أدبـائـهـا، ظرفـائها تـتـفطّرُ[2]

**في وصف الأساطيل البحرية:**

من مظاهر الحضارة الأندلسية التي وثقها الشاعر الأندلسيّ في شعره, "التفوق الحربيّ" خاصّة فيما تعلّق بأساطيل البحرية, و هاهُنا كمٌّ من النماذج, نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

يقول ابـن عبد ربّه, يصف البحر و السفينة و يمدح:

[1] المقري, "نفح الطيب" مجلد 1, ص 456.
[2] شاهر عوض الكفاوس, "الشعر العربي في رثاء الدول..", ص 1997.

بحرٌ يسير على بحرٍ بجاريةٍ ❀ للبحر، حاملة بالبحر، تُحتملُ

كأنها جبلٌ في الماء منتقلٌ ❀ يا من رأى جبلا في الماء ينتقلُ

تحكي العروسَ تهادى في تأوّدها ❀ و قد أطافت بها الدّايات و الخُوَلُ[1]

و قال ابن هانئ يصف أسطول المُعزّ الفاطميّ:

أما و الجواري المنشآت التي سرت ❀ لقد ظاهرتها عدذة و عديدُ

قبابٌ كما تُزجى القباب على المها ❀ و لكنّ من ضُمّت عليه أسودُ

مواخرٌ في طامي العباب كأنّه ❀ لعزمك بأسٌ أو لكفّك جودُ

أنافت بها أعلامُها و سمالُها ❀ بناءٌ على غير العراء مشيدُ

إذا زفرت غيضا ترامت بمارج ❀ كما شبّ من نار الجحيم وقودُ

فأنفاسهنّ الحامياتُ صواعقٌ ❀ و أفواههنّ الزافراتُ حديدُ[2]

و قال ابن هانئ أيضا, يمدح المعزّ لدين الله, و الفتح الذي كان على يده في الروم, واصفا السفن التي قهرت الروم:

تلك التي ألقت عليهم كلكلا ❀ و لها بأرض الأرمنين تليلُ

يرتابُ منها الموج و هو غطامطٌ ❀ و يُراع منها الخطبُ و هو جليلُ[3]

و قال ابن دراج القسطلي في معرض مدحه لخيران العامري, أحد قادة المنصور:

---

[1] ابن عبد ربّه, "ديوان ابن عبد ربّه", جمعه و حققه محمد رضوان الداية, مؤسسة الرسالة, سورية, ط1, 1399هـ/1979م, ص 136.
[2] ابن هانئ الأندلسيّ, "ديوان ابن هانئ", وزارة الثقافة, طبعة الجزائر عاصمة الثقافة, 2007, ص 98-99.
[3] نفسه, ص 260.

إليك شحنّا الفلكَ تهوي كأنّها ❀ و قد ذعر عن مغرب الشمس غربانُ

على لُجج خضرٍ إذا هبّت الصبا ❀ ترامى بنا فيها ثبيرٌ و شهلانُ

إذا غيض ماء البحر منها مددنهُ ❀ بدمع عيون يمتريهنّ أشجانُ

و إذا سكنت عنّا الرياح جرى بنا ❀ زفيرٌ إلى ذكر الأحبّة حنّانُ

كواكبُ إلاّ أنّ أفلاك سيرها ❀ زمامٌ و رحلٌ، أو شراعٌ سكّانُ[1]

و لابن دراج قصيدة لامية يصف فيها أسطول المنصور:

تحمّل البحر منه بحراً من القنا ❀ يروع بها أمواجه و يهولُ

إذا سابقت شأو الرياخ تخيّلتَ ❀ خيولا مدى فرسانهنّ خيولُ

سحائبُ تزجيها الرياح فإن وفت ❀ أنافت بأجياد النعام فيولُ[2]

و قال يوسف بن هارون:

و السّفن قد جلّلها قارُها ❀ كأنها أعراءُ حُبشان

كأنّها في دار مضمارها ❀ خيلٌ يُصنّعن لميدان

كأنّها و الماء ميدانُها ❀ في الجوّ منقضّة عقبان

ترى المقاذيف بأعنائها ❀ كأنما ترمي بنيران

كالأعيُن الحور مجاذيفها ❀ من حولها أشفارُ أجفان

[1] ابن دراج القسطلي, "ديوان ابن دراج", تحقيق و تعليق محمود علي مكي, منشورات المكتب الإسلامي بدمشق, ط1, 1381هـ/1961م, ص 87-88.

[2] نفسه, ص 5.

كأنّما أبراجا في الوغى ❀ ترمي من النّفط ببُركان[1]

و قال ابن هذيل:

و تلك الأساطيل المسخّرة التي ❀ تمرّ بتأييدٍ و تغزوا فتغنمُ

إذا مخرت في البحر ماجت كأنما ❀ تُخاصِمُ أبناء الضلالل فتخصمُ

و صُفّت كأن البحر تحت صدورها ❀ قد استأسرت أمواجه فهو أبكمُ

و قامت ستاراتٌ على جنباتها ❀ طوالٌ كما امتد السّحابُ المُركمُ[2]

و قال أبو الحسن القرطبيّ, و هو أخد شعراء دولة المحّدين, قال يصف إحدى المعارك البحرية أيام الخليفة عبد المؤمن بن عليّ:

حدّث عن الروم في أقطار أندلسٍ ❀ و البحر قد ملأء العبرين بالرب

يرمي بهم ظهر طرف بطن سابحةٍ ❀ يصلى بها عابد الأوثان و الصّلبِ

و طورٌ طارق قد حلّ الإمام به ❀ كاطّوركان لموسى أيمن الرّتبِ[3]

و قال لسان الدّين بن الخطيب, يصف الأسطول الأندلسيّ لبني الأحمر:

الحق يعلو و الأباطلُ تسفُلُ ❀ و الله عن أحكامه لا يُسألُ

و استقبلتك السابحاتُ مواخراً ❀ تهوي إلى ما تبتغي و تؤمّل

[1] ابن الكتاني, "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس", ص 73.
[2] نفسه, ص 74.
[3] محمد حسن فجه, "محطات أندلسيّة", ص 210.

هنّ الجواري المنشآت قد اغتدت ❀ تختالُ في بُرد الشباب و ترفُلُ

من كلّ طائرة كأنّ جناحها ❀ وهو الشراع به الفراخ تظلّلُ

و طلعنَ منك على البلاد بطارقٍ ❀ للفتح و النّصر الذي يستقبِلُ[1]

كانت هذه بعض النماذج التي يضيقُ المقامُ - صدقا- لحصرها, و لعلّ ما ذُكِر منها يكفي للتدليل على مدى ما وصلت إليه حضارة الأندلس في باب "التفوق الحربيّ البحريّ", من خلال ما وثقه الشاعر لنا, كما لعلّها تنقلُ جانبا من وجدانه المُمتلئ فخرا و اعتزازا بكل تلك المنشآت, ما جعلهُ ينقلها إلينا زاخرة بالحركة, مُفعمة بالحياة, كأنّنا نركبُ تلك السّفن و نُعاينُ تلك الأساطيل بأمّ الأعيُـن.

[1] المرجع السابق, ص 210.

## خاتمة:

- إنّ أصالة أيّ عمل أدبيّ لا يمكن معرفتها إلا بالاطلاع على البيئة التي نشأ فيها، و إنّ بيئة الشعر الأندلسيّ عرفت ملامحَ خاصّة فرضتها حضارةٌ ضاربة في عمق المجتمع، و دامت قرابة الثمانية قرون، عرفت خلالها تطوّرا و ازدهارا واسعين في شتّى المجالات و على رأسها العمران. فعرفت تشييدَ دور و قصور كثيرة كقصر الزهراء و الزاهرة و الحمراء... كما ساعد على هذا الازدهار الطبيعة الساحرة التي مثلت واحدا من أهمّ روافد شعراء الأندلس.

- من العوامل التي ساهمت في ازدهار الشعر الأندلسيّ: حركة الغناء و النهضة الثقافية و كذا جهود طبقة المؤدّبين الوافدين من المشرق. فكان الشعر الأندلسيّ في بداياته تقليدا و محاكاة للمشرق، شملت موضوعاته كل الأغراض التقليدية من غزل و مدح و رثاء و هجاء... ثمّ انفرد بشخصيّته إذ عرف بالمقابل تميّزا في عدة موضوعات، فبرز ما يسمّى رثاء الممالك البائدة وازدهر الوصف، كما ظهر ما يُسمّى شعرَ الاستعطاف و الشكوى و كذا شعر الاستنجاد. و قد تميّز الشعر الأندلسيّ بكونه في عمومه مزيجا غريبا بين القديم و الحديث و بموسيقاه العذبة، كما تميّز الوصف بالحياة و التشخيص.

- واكب الشاعر الأندلسيّ حضارته في جلّ مراحلها، و تأثر تأثرا كبيرا بمظاهرها، و أوّل ما سحرهُ طبيعة الأندلس فوثّق ملامحها و تحرّى في ذلك

الدّقة، فصوّر أشكال الحدائق و أنواع الزهور و أصناف الطيور و ألوانها و حركاتها... هي جنّة الأندلس سحرتهُم فوثقوا في متون الشعر سحرها.

- عرفت الأندلس تفوّقا حربيا، خاصّة على مستوى البحرية حيث شاد حكّامُها أساطيل ملأ سيطُها الدّنيا، فلم يغفل الشعراء عنها و نقلوا إلينا مشاهداتهم في قالب شعريّ رائع.
- حاز الشاعر ميزة على المؤرّخ، في الحركة و الحيوية التي يَهبُها لوثيقته "الشعريّة"، ذلك أنّ الشعر طاقة تصويرية و هو في الغالب مُعايشةٌ حيّة و مباشرة للبيئة و للواقع. كما أنّه ينقل إلينا رؤية إنسانيّة خاصّة، و حمولة عاطفيّة ألقى بها الشعراء في قصائدهم، فحرّكت فينا العواطف و المشاعر.
- كلّ ما سبق الاستدلال عليه، يجعل للشعر أهميّة كبيرة في سياق الحضارات، فهو حاملُ منجزاتها، و الشاهد الحيّ على أجوائها، و الموثّقَ -بكلّ إحساس- لمشاهدها...إنّه سجّلُ حضارةٍ ينبض بالحياة إلى يومنا هذا.

هذا ملخّص لنتائجَ هي في الأصل مبثوثةٌ في فصول هذا البحث، و إنّي لا أدّعي الإلمام بكلّ ما سبق ذكره، و إنّما هي محاولة بسيطة لرصد ما أمكن من مظاهر حضارية وثّقها لنا شعراء الأندلس في مجالات مختلفة، أخذتُ منها على سبيل المثال فقط ثلاثة جوانب هي الطبيعة و العمران و التفوق البحريّ. و لعلّ تلك النماذجَ تكون كافية للإجابة عن جملة الإشكاليات التي سبق طرحها.

و يبقى هذا جهد مقلّ و التفاتة مستعجلة، أملاها ضيق الوقت، على صفحات مشرقة من سجّل التاريخ الإسلاميّ تتجسّدُ فيها إحدى علائق الشعر بالحضارة.

قد يكون البحث انتهى، و هذا في ظاهر الأمر، لكنّ بابَهُ في الحقيقة مفتوح على مصراعيه لكلّ راغبٍ في الاستزادة، توّاق للبحث، خاصّة فيما يخصّ "علاقة الشعر بالتاريخ" التي تمنيتُ معالجتَها كإشكالية رئيسية في البحث، ولكن حال دون ذلك سلطان الوقت، إذ حكَم.

هذا البحث بعون المولى تعالى تمّ ... و هذا المشعل أسلمه لمن شاء أن يستلِم.

# قائمة المصادر و المراجع

## القرآن الكريم

## المصادر و المراجع:


1. أويزار (حسين يوسف), **"المجتمع الأندلسيّ في العصر الأمويّ"**, مطبعة الحسين الإسلامية, القاهرة, ط1, 1414هـ.
2. إسماعيل بن يوسف الغرناطي (أبو الوليد), "نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان", المعروف بـ**"مشاهير الشعراء و الكتاب في المشرق و الأندلس و المغرب"**, تحقيق محمد رضوان الداية, عالم الكتب, بيروت, د.ط, د.ت.
3. الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر), **"الحيوان"**, الكتاب الأول, شرح و تحقيق عبد السلام محمد هارون, مطبعة مصطفى اليابي الحلبي و أولاده, مصر, ط2, د.ت.
4. ابن خفاجة, **"ديوان ابن خفاجة"**, تحقيق عبد الله سنده, دار المعرفة, بيروت, ط1, 1427هـ/2006مـ.
5. الدّاية (محمد رضوان), **"في الأدب الأندلسي"**, دار الفكر المعاصر, لبنان و دار الفكر, سورية, ط1, 200.

6. ابن درّاج القسطلي, **"ديوان ابن درّاج"**, جمع و تحقيق, محمد علي مكّي, منشورات المكتب الإسلامي, دمشق, ط1, 1381هـ/1961م.

7. الدّغلي (محمد سعيد), **"الحياة الاجتماعية في الأندلس و أثرها في الأدب العربي و في الأدب الأندلسيّ"**, منشورات دار أسامة, ط1, 1404هـ/1984م.

ابن رشيق القيرواني:

8. **"العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده"** ج1, تقديم و شرح صلاح الدين الهواري, دار و مكتبة الهلال للطباعة و النشر, بيروت, لبنان, 2002, د.ط.

9. **"العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده"** ج1, طبعة الجزائر عاصمة الثقافة العربية' 2007.

10. الروبي (ألفت كمال), **"نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتلا ابن رشد"**, دار التنوير, لبنان, ط1, 1983م.

11. زرقان (عزوز), **"شعر الاستصراخ في الأندلس"**, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, 2008.

12. السيّد (محمود), **"تاريخ العرب في بلاد الأندلس"**, مؤسسة شباب الجامعة, الاسكندرية, 2005, د.ط.

13. صبحي (محيي الدين), **"الشعر طقس حضارة.."**, منشورات وزارة الثقافة, دمشق, سورية, د.ط, د.ت.

14. ضيف (أحمد), **"بلاغة العرب في الأندلس"**, دار المعارف, تونس,ط2, 1998.

ضيف (شوقي):

15. **"الفن و مذاهبه في الشعر العربي"**, دار المعارف, القاهرة, ط10, د.ت.

16. **"الشعر و طوابعه الشعبية"**, دار المعارف, القاهرة, ط2, د.ت.

17. **"البطولة في الشعر العربي"** دار المعرف, القاهرة, ط2, د.ت.

18. الضبّي (أحمد بن يحيى), **"بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس"**, ج1, تحقيق إبراهيم الأبياري, دار الكتاب المصري, القاهرة, و دار الكتاب اللبناني, بيروت, ط1, 1410هـ/1988مـ.

19. عاصي (ميشال), **"الشعر و البيئة في الأندلس"**, منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع, بيروت, ط1, 1970.

20. العاني (سامي مكّي), **"الإسلام و الشعر"**, عالم المعرفة, المجلس الوطني للفنون و الثقافة و الآداب, الكويت, 1973, د.ط.

21. عبارة (عبد المعين محمود), **"روائع الشعر العربي القديم"**, مكتبة الدوحة الحديثة, الدوحة, قطر, د.ط, د.ت.

عباس (إحسان):

22. **"تاريخ النقد الأدبي عند العرب"**, دار الشروق للنشر و التوزيع, عمان, ط1, 2006.

23. **"تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة"**, دار الشروق, عمان, ط1, 2002.

24. **"تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف و المرابطين"**, دار الشروق, عمان, ط1, 1997.

25. ابن عبد ربه, **"ديوان ابن عبد ربّه"**, جمع و تحقيق محمد رضوان الداية, مؤسسة الرسالة, سورية, ط1, 1399هـ/1979مـ.

26. العشي (عبد الله), **"أسئلة الشعرية: بحث في آلية الإبداع الشعري"**, منشورات الاختلاف, الجزائر العاصمة, ط1, 2009.

27. عناني (محمد زكريا), **"تاريخ الأدب الأندلسيّ"**, دار المعرفة الجامعية, مصر, 1999, د.ط.

28. الفاخوري (حنّا), **"الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم"**, دار الجيل, لبنان, ط1, 1986مـ.

29. فجّه (محمد حسن), **"محطات أندلسيّة: دراسات في التاريخ و الأدب و الفن الأندلسيّ"**, الدار السعودية للنشر و التوزيع, د.ط, د.ت.

30. ابن الكتاني, **"التشبيهات من أشعار أهل الأندلس"**, طبعة إلكترونية, مكتبة المصطفى الالكترونية.

31. //www.Almostafa.com:To pdf. http

32. كولان (ج.س),**"الأندلس"**, ترجمة لجنة ترجمة المعارف الإسلامية, دار الكتاب اللبناني, بيروت ودار الكتاب المصري, القاهرة, ط1, 1980.

33. لجنة من الأدباء و الأساتذة بالأقطار العربية, **"الموجز في الأدب العربي و تاريخه"**, دار المعارف, لبنان, د.ط, د.ت.

34. مؤنس (حسين), **"الشعر الأندلسي"**, مكتبة النهضة العربية, القاهرة, 1952, د.ط.

35. المسيري (عبد الوهاب), **"دراسات في الشعر"**, مكتبة الشروق الدولية' القاهرة, ط1, 1427هـ/2007مـ.

36. المقرّي, **"نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"**, مجلد1, تحقيق إحسان عباس, دار الأبحاث, الجزائر, ط1, 2008.

37. ابن منظور, **"لسان العرب"**, المجلد العاشر, دار صادر للطباعة, بيروت, د.ط, د.ت.

38. ابن هانئ الأندلسي, **"ديوان ابن هانئ"**, وزارة الثقافة, طبعة الجزائر عاصمة الثقافة, 2007.

39. الوائلي (عبد الحكيم), **"موسوعة شعراء الأندلس"**, دار أسامة, عمان, الأردن, ط1, 2001.

**المجلات:**

40. "مجلة العربي", وزارة الثقافة, الكويت, العدد635, شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011.

41. "نظرية الشعر, مرحلة مجلة أبولو, القسم1: مقدمات", تحرير و تقديم محمد كامل الخطيب, منشورات وزارة الثقافة, سورية, 1992.

42. "نظرية الشعر, مرحلة مجلة أبولو, القسم2: مقالات-شهادات", تحرير و تقديم محمد كامل الخطيب, منشورات وزارة الثقافة, سورية, 1992.

**الرسائل الجامعية:**

43. الخوري (جميلة), **"الطبيعة في الشعر الأندلسي"**, رسالة ماجستير, الجامعة الأمريكية, بيروت, 1946.

44. دريدي (أشجع رشدي عبد الجبار), **"شعر قضاة الأندلس الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف: دراسة نقدية تحليلية"**, رسالة ماجستير, جامعة النجاخ, قسم اللغة العربية و آدابها, نابلس, فلسطين, 2006.

45. الكفاوس (شاهر عوض), **"الشعر العربي في رثاء الدول و الأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس"**, رسالة دكتوراه, جامعة أم القرى, كلية اللغة العربية, مكة المكرمة, 1404هـ/1984مـ.

**المواقع الإلكترونية:**

46. موقع ويكابيديا: www.wikapidia.org

47. منتدى البحوث العلمية, منتديات ستوب: forum.stop.com

# الفهرس


**مقدمة**.....03

**مدخل**.....07

**الفصل الأول:** الشعر في حضارة الأندلس.....21

المبحث الأول: بيئة الشعر الأندلسي.....22

المبحث الثاني: الشعر الأندلسيّ.....33

**الفصل الثاني:** الشعر الأندلسي و توثيق المظاهر الحضارية.....46

المبحث الأول: توثيق الشعر للمظاهر الطبيعية.....48

المبحث الثاني: ثوثيق الشعر للمظاهر العمرانية و أساطيل البحرية.....61

**خاتمة**.....78

**قائمة المصادر و المراجع**.....81

**فهرس**.....88